

الأبله والمنسية وياسمين

الميلودي شغموم





سلسلة روايات الزمن

العدد 23

يوليوز 2015

المدير : عبد الكبير العلوي الإسماعيلي

الإخراج الفني والغلاف : طاقم الزمن

العنوان : 153، شارع سيدي محمد بن عبد الله، رقم 7 - العكاري - الرباط

الهاتف + الفاكس : 44 98 29 37 5 212 00

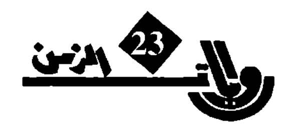
البريد الإلكتروني : manchourat@gmail.com

الإيداع القانوني : 2015 MO 2365

ردمك : 978-9954-516-44-7

الطبع : مطبعة بني ازناسن سلا - المغرب

التوزيع : سبريس

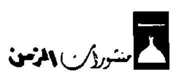


2015

الأبله والمنسية وياسمين

رواية

الميلودي شغموم





«نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة»

الكتـــاب الأول

الهل.....؟

عندما سألت عنه علماء التاريخ والأنساب اختلفوا بخصوص اسمه ومكانه وزمانه، رغم أنهم لم يختلفوا إلا قليلا بشأن هويته. قالوا اسمه في الشرق قويدر الكبداني، واسمه في الشمال المختار الزيلاشي، واسمه عريف بنجلون المسدي في فاس ونواحيها، وفي البيضاء وضاحيتها علي القبي، وفي أغدير والأطلس محماد آيت بيهي، وفي الجنوب اسمه زين الحالة ولد سيدهم.. باختصار، قالوا في كل مكان آخر له اسم ورسم، وفي كل زمان له علامات وخصوصيات، وهو في كل الأمكنة والأزمنة واحد، رغم أن الهوية لا تفهم إلا من خلال الاختلاف والتغير، وقد صدق بشأنه ماركس وأرسطو كما صدق أبو ذر الغفاري وغيلان الدمشقي، رغم أنه لا يعول في أخباره على تاريخ الملل والنحل، ولا على تاريخ الأنساب أو الطبري أو المسعودي ولا حتى على ابن خلدون أو الجبرتي،

ذلك لأن أخباره لا تقرأ وإنما تسمع، وهي لا وجود لها إلا وراء الأخبار المنقولة أو المدونة وبشكل مقنع جدا ومتقطع، ولا ينفع في حفرياتها إلا المبضع، وقد يحتاج المرء في دقائقها إلى الاستعانة بالمجهر.

ظل العلماء مدة عام يحكون لي أشياء كثيرة مثل هذه التي لا يفهمها عقلي الصغير، أو جاهل مثلي، ولا أظنني بحاجة إليها كي أعرف من يكون الرجل حقا. ولقد استمروا طوال هذه الفترة يقولون لي، وكلما قالوا قلت بدوري حتى اجتمع لدي من أقوالهم وأقوالي الشيء الكثير وبشكل لم أعد قادرا معه على التمييز بين ما قالوا وما قلت. عندئذ فكرت، ولكن بعد حيرة ليست بالقصيرة: لا شيء يرجى من علماء هذا الزمان، ذهب الزمان، ذهب الزمان الذي كان العالم يقبل أن يصلب أو يشنق أو يتجرع السم من أجل الحقيقة، فيموت ويستمر مشعا في الحقيقة الموقف، في هذا كان يتساوى عالم الرياضيات وعالم الفيزياء أو الفلك أو التاريخ أو الطب أو الأديب. ولما وصلت إلى هذا الحد من التفكير أدركت أني أبالغ وأن المسألة لم تكن دائما على هذا الوجه، ومن أين لتلميذ في قسم الباكالوريا وفي بلد متخلف أن يعرف أو يتأكد من مثل هذه الأشياء ؟ قلت: وعلى كل حال فإن اختلاف العلماء رحمة بالناس وبالعلماء أنفسهم، ولولا هذا الاختلاف لما كان للعامة علم ولا فن ولا ذكر، وهو أمر ينفع العلماء

كثيرا ولكنه لا يضر بالجاهلين مثلي، إلا أني لا أريد أن أضيع في متاهاته كما حدث لهؤلاء العلماء، فالعلم بحر لا يدخله إلا سباح ماهر أو بدوي أحمق لا يعرف عن خطره شيئا، وأنا لا أريد سوى خبر يطمئن إليه قلبي ولقاء يفرح العين، فلأرح نفسي والعلماء، ولأسأل عنه جدتي أو جدي، فهما الوحيدان اللذان مازالا يعيشان خارج متاهات العلماء، وقد يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر، يقول سادتنا القدماء.

***

حين دخلت على جدتي وجدتها في فراشها تبكي. حدست أن والدي لم يشتر لها بعد اللعبة التي تحب أو أن جدي قد نام قبل أن يصلي. خرجت مسرعا وعدت إليها مهرولا أحمل في جيبي ثلاث علب من الشوينغوم التي يعلن عنها كل ليلة في التلفزيون والإذاعة. فلما رأتها كفت عن البكاء وابتسمت بخبث قائلة:

- أكيد أنك جننت أو لك عندي حاجة.

- قلت:

- حديثي عن سيد الزرع والماشية والبيوت والناس، ذلك الجاهل العارف، القوي الضعيف، الميت الحي، المقنع المكشوف العينين والأذنين والأنياب، الحقير العظيم، الطيب الخبيث ... هل فهمت ؟

استغربت:

- من تعني، فهم كثر ؟

تذكرت أن جدتي بدورها تسمع أم كلثوم، وفسرت:

الأبله الذكي، ذلك الذي إذا غضبت مني أمي تقول: ترفع كتفيك كأنك ابن الأبله.

استجمعت الجدة حبال صوتها:

- حدثتني والدتي عن جدتي عن جدة أمي عن جدة جدتي عن ...

قاطعتها مستنكرا تعاليمها:

- أعرف أن كل رواياتك صحيحة وأن السند لا يرقى إليه أدنى شك، فاختصري سلسلة الرواة، ولا داعي لربطها بأمنا حواء، فهي على الأقل منها براء.

ابتسمت الجدة الخبيثة وهي تكور الشوينغوم داخل فمها الخالي من الأسنان كأنه مغارة صغيرة مظلمة تتحرك داخله أفعى رقطاء:

- في البداية ألعن الشيطان ثم أصلي على النبي العدنان بعد الاستعانة بالرحمان... كان يا ما كان.. كانت هناك في كل مكان وزمان...

قاطعتها مرة أخرى:

- استغفري الله يا جدتي، كيف عرفت أن ما تحكينه، أقصد ما ستحكينه، وجد في كل زمان ومكان ؟

قالت متجاهلة كلامي:

- كانت هناك قرية صغيرة آمنة رغم فقرها، رغم خلافاتها، حية رغم موتها، سعيدة رغم شقائها، يعيش أهلها من حيوانات وأعشاب وخشب الغابة المحيطة بها، يفلحون سهلها ويرعون ماشيتهم في هضبتها ... وذات يوم حطت شاحنات وسيارات بالقرب من القرية، فنزل منها رجال وسلاح كثير ونصبت خيام وسياجات. ظن أهل القرية أن الحروب الصليبية ما زالت مستمرة ...

فلما هب رجالها لطرد هؤلاء الوافدين أو قتلهم بالسيوف والخناجر والرماح مات أغلب رجال القرية ولم ينج منهم إلا أولئك الذين اكتشفوا بعد فوات الأوان أن الاختفاء أو الهروب أحسن وأجدى من المجابهة وأن فكرة طرد الغزاة أو القضاء عليهم بواسطة السيوف والخناجر والرماح كانت طموحا فوق حجم الإمكانيات. ضمن هؤلاء، معهم أو خلفهم أو بعيدا عنهم، كان يوجد شاب يصفه أهل القرية بالأبله ...

توقفت الجدة فجأة وهي تتألم. كادت تقتلها كرة الشوينغوم التي أفلتت إلى القصبة الهوائية. تخلصت منها بعد معاناة ومسحت عينيها الدامعتين من الألم. ثم ملأت فمها من العلبة الثانية وتابعت:

- أخفت النساء الرجال الهاربين، وكن يعرفن مخبأ كل رجل نجا من القتل. لكن أية منهن لم تعرف أين ذهب الأبله. والحقيقة أن القرية لم تستغرب عدم ظهور الأبله إذ كانت له حماقات كثيرة لم يشك أحد أنه سيروح ذات يوم ضحية إحداها. ولكن النساء أشفقن عليه، فقد تعودن أن يتسلين بحماقاته البريئة.

بعد مدة رحل أولئك الوافدون إلى مكان آخر لم نعرفه، فعاد الرجال إلى الظهور والعمل من جديد، ولم يخبرهم أحد بما وقع للأبله. لم يخبرهم أحد بأن نساءهم وبناتهم كن يذهبن إلى مخيم الغرباء ويمكثن به طول النهار أو الليل وأحيانا يمكثن به طول الليل والنهار. لكن الرجال افتقدوا الأبله فسألوا عنه ليتسلوا بحماقاته الجميلة. بحثوا عنه في كل مكان من القرية وضواحيها. وأخيرا وبعد جهد جهيد اتفقوا على أنه قد يكون هلك أو ضل وصلوا عليه وحده صلاة الغائب.

هكذا عادت القرية بسرعة وفي هدوء تام إلى حياة العمل، والإنجاب والأكل والمرح، عادت القرية آمنة رغم فقرها، متماسكة رغم خلافاتها، حية رغم موتها، سعيدة رغم شقائها، نسي الرجال ما حدث ونسيت النساء ما حدث فنسيت القرية الأبله مثلما نسيت بقية الرجال الذين ماتوا أو فقدوا.

***

وذات يوم من الأيام العادية، وكل الأيام كانت عادية في هذه القرية، عاد الأبله. لكنه عاد وهو يختلف كثيرا عن الأبله الذي عرفته القرية، عاد ببدلة أروبية وربطة عنق وصلعة صغيرة تلمع وكرش مدورة تفسح أمامه الطريق. عاد ومعه رجل أبيض يلبس مثل لباسه وبينهما امرأة شقراء ظنها أهل القرية من نوع تلك الجنيات التي تتحدث عنها أساطيرهم وخرافاتهم. حيثما يمر الأبله يترك الغبار. لقد كان دائما يشغل الناس بحماقاته. ولما عاد صار موضوع أحاديث القرية من جديد. وصار مع صاحبه ورفيقتهما موضوع رغباتهم الكثيرة جدا، الواضحة أو الغامضة جدا.

لكن غياب تلك البسمة البريئة التي يبللها اللعاب والتي لم تكن تفارقه، والوقار الذي أصبح يطبع كلامه وسلوكه، والصلعة التي تلمع دائما كأنها تاج يزين رأسه، والرجل الأبيض المخيف والمرأة الجنية الشقراء اللذين يحيطان به أينما حل، كل هذا جعلهم يكفون عن مداعبته وينسون حماقاته.

لم يدركوا، بطبيعة الحال، أن الأبله لم يعد في حاجة إلى حماقات تجعلهم يلحون على وجوده في كل مجمع وتجعله يأكل من غير أن يعمل ويبقى مع النساء طول النهار.

لكنهم شعروا مع ذلك أن الأبله لم يعد هو الأبله بالرغم من أنهم حرصوا في البداية ألا تضللهم البدلة والصلعة

والكرش وربطة العنق، وبالرغم من أنهم لم يحاولوا أن يفهموا لماذا تغير وكيف.

***

صباح اليوم التالي خرج الأبله من الخيمة مع الأبيض وتتوسطهما الشقراء وخطب في الناس. قال وكأنه يأمر:

- نريد بيتا من ثلاث غرف ومطبخ وحديقة، ونريد أن يتم بناؤه قبل غروب شمس هذا اليوم، لذلك يجب أن يساعدنا الرجال والنساء والأطفال والحيوانات. أما الأكل فلدينا من الطعام المعلب ما يكفيكم جميعا، وسنوزع عند الانتهاء من عملية البناء ما يرضيكم من الهدايا والعطاء. فلنبدأ باسم الله.

قبل حلول صلاة العصر كان البيت تام البناء، كما أراد تماما، بالشكل الذي أراد، وفي المكان الذي اختاره، لا بعيدا عن بيوت القرية ولا قريبا منها، لكنه البيت الوحيد الذي كان يختلف عن بيوت أهل القرية. في أقل من ربع ساعة تم ترتيب المتاع وأصبح البيت يشبه جناح قصر من قصور الملوك. دخل الأبله واستحم. ثم لبس بذلة أخرى. وكذلك فعل الأبيض والشقراء بينما ظلت جموع أهل القرية تنتظر غير بعيد من الباب، خرج الأبله والأبيض فجأة تتوسطهما الشقراء، وبدأ توزيع الهدايا والعطاء: لحم وخبز على الجميع، علب سجائر وزجاجات خمر على الرجال، ملابس ملونة وعلب ماكياج على النساء، حلويات محشوة بالحشيش على الأطفال، مع

بعض المال الذي لم يعرف الرجال ماذا يفعلون به فتسلمته النساء لتزين به ملابسهن أو خطفه الأطفال ليلعبوا به.

***

ذلك اليوم، ما كاد يبدأ الظلام رحلته عبر القرية حتى صارت القرية في عرس لم تعرف مثله، رقص ومرح وحماقات لم يرتكب أحد مثلها من قبل، طار وقار الشيوخ، تبخرت حشمة النساء، وتبرأ الأطفال من الحياء، اختلطت المعايير، فلما أطفئت الأنوار لم يعد يميز الرجل بين زوجته وزوجة جاره ولا بين أمه أو أخته وابنته، وكذلك فعل الشبان والأطفال والنساء.

أما الأبله وصديقه ورفيقتهما فلم يشاركوا في هذا العرس، وإنما جلسوا بباب بيتهم وأخذوا يتأملون الناس الذين كانوا يضحكون ويمرحون ويتعرون. كانوا يبدون وكأنهم يتفرجون على مسرحية تقدمها فرقة للعرائس. وحين شبعوا متعة ولذة قال الأبله لنفسه: ها كل القرية تلعب لعبة الأبله مكاني، وها أنا الآن أتسلى بحماقاتهم بعد أن كانوا يتسلون بحماقاتي. والبقية آتية.

غير أنه ما كان يكمل حديثه مع نفسه حتى قامت المرأة الشقراء وقبلته في فمه وهي تقول:

- إنك ذكي، ذكي جدا، وسنحقق بفضلك كل ما نريد في هذه القرية البدائية، بل سنقوم بدور إنساني عظيم، سندخل

الحضارة إلى هذه القرية التي ظلت متخلفة عن التطور منذ آلاف السنين، وسيكتب عنا أو نكتب عن أنفسنا ونظهر في السينما ونسمع في الإذاعة بكل مكان. ولما سمعها الأبيض قال:

- أي، والله ! لنكونن نموذج الممدنين.

***

بعد مرور حوالي شهر على عودة الأبله ظهرا جليا أن وجه القرية أخذ يتغير: صار لها جزار يبيع اللحم بالتقسيط بعد أن كانت البهائم تذبح وتوزع بين أهل القرية، وصار لها دكان لبيع الخضر بعد أن كانت الخضر تؤخذ من الحقول مباشرة، وصار لها حانوت لبيع المواد الغذائية، وصارت لها حانة لبيع الخمر والحلويات المحشوة بالحشيش، أي صارت لها جماعة من الوسطاء تلعب دورا هاما في تحديد كثير من الحاجيات وطريقة التصرف بها، ثم صارت عائلات تأتي من قرى مجاورة لتستقر بها بحيث هجرت تقريبا كل القرى الصغيرة القريبة، وصار المال هو أساس الحياة بعد قرون من الاستغناء عنه، وصار الجميع في حاجة إلى المال. وبما أن المال لا يوجد إلا عند الأبله ورفيقته وصديقه رغم أن أي شخص لم يعرف من أين يأتون به ولا أين يضعونه، وبما أن الرجل الأبيض والمرأة الشقراء لا يتكلمان مع أحد ولا يعطيان شيئا لأحد، فقد صار الجميع في حاجة إلى الأبله ولأن الحاجة أساس التقديس غالبا، فقد صار الأبله مقدسا في القرية. إنه يملك

كل مرافق الحياة، إذن هو يملك الحياة، ويملك الناس الذين تسكنهم الحياة وتتحكم فيهم، وقديما قيل: من يملك قوتي فهو سيدي ومولاي.

ثم إن رفيقته جنية، وصديقه غريب محاط بالأسرار، إذن فهو يملك سرا ما من أسرار الحكمة، أي يملك كنزا دلته عليه الجنية والرجل المحاط بالأسرار، وقديما قيل:

الحكمة قوة، وادعاء الحكمة قوة، والحكماء وأدعياؤهم إخوان الملوك

وهكذا أصبح الأبله إذا مشى تمشي كل القرية، وإذا ظهر تقف إجلالا له كل القرية، وإذا تكلم تصيح لبيك كل القرية، وإذا عطس تعطس كل القرية، وإذا غضب ترتجف كل أعضاء القرية، وإذا كح تكح كل القرية وإذا اختفى عن أعين القرية تتكلم عنه ألسنة كل القرية، وإذا تعب تقلق قلوب كل القرية، فهو عضو القرية الذي إذا لم يكن على خير ما يرام تداعت له كل الأعضاء الأخرى بالسهر والحمى والدعاء وضخ الدم.

هكذا إذن صار الأبله صاحب الحماقات القديمة، الحماقات البريئة المسلية قديما، يملك أعين القرية وآذانها وقلوبها وعقولها وأيديها لأنه يملك مفاتيح معدتها ويملك سر القوة والطاعة. ولم يلبث الأبله، بعد أن استتب له الأمر ودانت له القرية بالطاعة والولاء، أن قسم كل أراضي القرية تقسيما محكما بحيث جعل بعضها للفلاحة وبعضها لتربية

الماشية، وبعضها للمرافق العمومية. ثم قام بعد ذلك بجلب ماشية من الخارج، وحول ماء النهر الذي كان يمر بإحدى القرى الصغيرة المجاورة المهجورة إلى قريته. ثم بنى سدا عظيما لخزن المياه، وشيد أماكن ضخمة لخزن الزرع، وصنع طريقا واسعا طويلا تصل القرية بأقرب مدينة. وفكر في التنقيب عن النفط لكنه لم يلبث أن عدل عن هذه الفكرة خوفا من الطمع فيها من طرف الغرباء. ثم فكر في مد خطوط السكة الحديدية وإيصالها إلى المدينة لكنه اكتفى بمد خطوط تصل بين الجبل والهضبة والسهل خشية أن يأتي من يمدها إلى قرى مجاورة يفكر في ضمها إلى قريته.

توقفت الجدة قليلا عن الكلام لكي تتمكن من استعادة نفسها وتغيير كرة الشوينغوم بكرة جديدة، ثم تابعت:

- لعلك أدركت الآن أن القرية صارت مملكة قائمة بذاتها، وأن الأبله صار ملكا حقيقيا لهذه القرية، وأنه لم يعد ينقصه إلا بعض من الشكليات التي يتمسك بها العظماء وبعض الأجهزة التي تساعده على تسيير شؤون القرية على أحسن ما يرام. وهكذا، ومن أجل هذا، أنشأ شرطته وأنشأ محكمة وأسس بنكا وخزينة وصار له موظفوه، بل صار له جواسيسه وآذانه وعيونه.

لكن هذه المملكة لكي تصير مملكة حقيقية كان يجب أن تظل مغلقة. وهذا بالضبط ما أدركه الأبله في حينه إذ منع

سكانها أن يتعدوا حدودها من غير ما إذن ولا رخصة، وأسس شرطة خاصة لمراقبة السكان كي لا يتسللوا إلى خارجها أو يلعب بعقولهم أعداؤها. ثم أنشأ جيشا لصد كل الوافدين الذين قد تغريهم خيراتها فتسول لهم أنفسهم الطمع فيها.

هكذا إذن وباختصار أحكم الأبله سيطرته على القرية وأمسك بخيوطها في يديه. والواقع أن هذه المملكة الصغيرة كانت تابعة بشكل من الأشكال إلى مملكة أكبر توجد بالمدينة القريبة منها. لكن هذه حكاية أخرى. والأبله نفسه لم يكن يغضبه أن يعتبره ملك المدينة مجرد أمير ما دام يتصرف في مملكته القروية كما يشاء وما دام الأمير في غنى عن الملك، والملك قد استراح من مشاكل القرية. أضف إلى هذا أن الناس لم يهتموا بهذا الأمر، وأن أيا منهم لم يتحقق من صحة هذه التبعية، فهي قد تكون مجرد وشاية أو سم حاسد من أمثال أولئك الذين يتحدثون عن علاقات المركز بالمحيط.

هكذا تمر الأيام والشهور والسنوات وهذه المملكة القروية الصغيرة تزداد غنى واتساعا ونفوذا والأبله يزداد عظمة وقوة وسلطة. وأثناء ذلك تضع المرأة الشقراء بنتا تشبهها فتفرح بها كل القرية. ثم تضع الشقراء ولدا يشبه الأبله فتفرح به كل القرية. ثم تضع الشقراء ولدا ثانيا يشبه الأبله فتفرح به كل القرية. وما أطول حفلات القرية حين تضع الشقراء أو يحل عيد ميلاد أحد أبنائها.

إن الدهشة لا تأتي بلا مناسبة. فلقد فسر الناس هذا التشابه بين ولدي الشقراء والأبله قائلين بأن الشقراء قد توحمت على الأبله. وأية امراة لم تتوحم على الأبله رغم أن أية واحدة منهن لم تأت بولد أو بنت تشبه الأبله ؟ تكبر البنت والولدان فيؤسس الأبله مدرسة لتعليمهم ويجلب مدرسة شقراء من الخارج كي تشرف على تعليمهم وتعطي للشقراء الوافدة كل الوسائل الضرورية وغير الضرورية لتربية الولدين والبنت أحسن تربية. يلاحظ الناس الجمال الساحر الذي تمتاز به المعلمة، فهي أجمل من الشقراء أم الأولاد، ويبدو أنها أذكى، ولكنها بالإضافة إلى هذا مثقفة وأعلى ثقافة من الأبله والأبيض والشقراء أم الأولاد وإلا لما عهد إليها بتربية الأولاد.

يلاحظ الناس كذلك الشحوب الذي بدا يلاحق وجه الشقراء أم الأولاد وبشكل تدريجي ورغم الأصباغ منذ مجيء المعلمة. غير أنهم صاروا يعتبرون الأمر عاديا، فالشقراء الجنية ليست في عز الشباب، وربما كان للمناخ دور كبير في هذا الشحوب. إلا أنهم استيقظوا ذات صباح على خبر مفاجئ ينعي الشقراء الجنية.

يسير الناس في موكب الجنازة، ويلاحظون أثناء سيرهم أن الرجل الأبيض الذي قيل إنه زوجها لم يكن يظهر عليه أثر الحزن. كما يلاحظون أن الأبله لم يبد على خديه أثر الدموع

لكنه مع ذلك حزين وصامت وكأنه يتألم. يرجع الناس إلى بيوتهم وهم يشكون في أن تكون الشقراء أم الأولاد امراة وفية لزوجها الأبيض مبررين شكهم بأنه من المستحيل أن يعيش الأبله كل هذه المدة الطويلة من غير امراة تشاركه الفراش، خاصة أثناء ليالي الشتاء الباردة جدا في القرية. غير أن الحادث مر على العموم كما تمر عادة مثل هذه الأحداث في القرية.

***

قالت الجدة وهي ترمي بكرة الشوينغوم من فمها وتضع مكانها قطعة صغيرة من الفحم الخشبي:

- الخادمات، احذر الخادمات يا بني. لقد كادت إحداهن أن تسرق مني جدك، وجدك ضعيف أمام النساء كما تعلم- أوقفت الجدة:

- أرجوك، أكملي. واحكي لي قصة جدي مع الخادم فيما بعد.

صمتت قليلا وكأنها تتردد بين التوقف احتجاجا وبين الاستمرار عطفا ثم تابعت:

- كانت بقصر الأبله خادم جميلة، مغرورة، غير راضية بوضعها، تتشوق إلى اليوم الذي يلاحظ فيه الأبله جمالها فيلتفت إليها ويقربها إليه. لكن الأبله كان أعمى كما هي عادة الرجال، وانتظار الخادم طال. فقررت الخادم أن تنتقم، أن تحرق

الأبله ومربيته، لعلها بهذا تفوز بالأبله. وتقرر الخادم الحمقاء أن تفضح السر وتعلنه لإحدى صديقاتها فتستيقظ القرية كلها ذات صباح على خبر اليقين حول علاقات الأبله العظيم. قالت الخادم لصديقاتها: الأبله لا شيء، والأبيض هو الذي يخطط لكل شيء، والأبله يطبق فقط، يطبق ما يأمر به الأبيض، وأحيانا بشكل سيء، فيغضب الأبيض ويرعب ويزبد، لكن الأبله مع ذلك ولد الحرام، فهو زوج للزوجة الشقراء، وزوج للزوج الأبيض، أي أنه أبو الأولاد، وهو، لعنة الله عليه، يعيش من الحرام وبالحرام وفي الحرام ومع الحرام، وما قتل الشقراء أم الأولاد سوى الغيرة، الغيرة من الزوج الأبيض الذي صار لها عشيقة منافسة ومن المعلمة الشقراء التي تفوقها جمالا. تحملت أم الأولاد منافسة الزوج، لكنها لم تجد إلى تحمل منافسة المعلمة سبيلا. وهكذا ترين يا أخت أن الأبله ولد الحرام، وأنهم جميعا أولاد الحرام وصانعو حرام.

هكذا تبدأ الدهشة فجأة بسبب كلام غير مسؤول من امرأة حمقاء، كلام خلق تناقضا محتملا في حياة الأبله، الأبله الذي يتظاهر بأنه قديس: الرجل عاد إلى القرية بالخير، وفي عهده بلغت ما بلغته من رقي ورخاء، منشآته وأعماله شاهدة شهادة شامخة على محبته للخير، فهل يعقل أن يكون بمثل هذه البشاعة النفسية، أن يكون مترديا أخلاقيا إلى هذه الدرجة، أن يؤسس حياته على الشر والدناءة ؟

سيصير الخبر أخبارا والإشاعة إشاعات، فالذبابة تولد ذبابة في هذه القرية لتصير في مدة قصيرة فيلا أو زرافة أو نسرا. وهكذا يتفنن خيال القرية العجيب في خلق صورة مناقضة تماما لتلك الصورة التي كانت للأبله منذ عودته إلى القرية.

سيشاع بين الناس أنه لما اختفى عند نزول الغرباء بالقرب من القرية ذهب إلى المدينة، وأنه في هذه المدينة التي لا أخلاق لها عمل خادما في حانة للأبيض وأن الأبيض لم يكن رجلا رغم أنه لا يختلف بشيء في خلقته عن الرجال، وأن الأبيض قرب إليه الأبله لما رأى ما رأى من حماقاته المسلية إلى درجة أنهما صارا ينامان في نفس الفراش، وأن الأبيض كان راضيا عن هذا بينما كان الأبله يرتكب حماقة من حماقاته العادية البريئة.

وأما الشقراء التي صارت أم الأولاد فإنها كانت تخدع الناس بالتظاهر أمامهم بان الأبيض زوجها، وتعامله على هذا الأساس لكي لا يطمع فيها من لا ترغب فيهم من الرجال، وأنها هي التي جاءت به من أوروبا إلى المدينة التي يعيش فيها قوم لوط ليكون ساعدها الأيمن، وإنها إنما خرجت من بلدها مهاجرة من زوج سكير مقعد غيور وطلبا كذلك للثروة والجاه والتعويض، وإن الذي صار يهم الشقراء بعد عشرات التجارب الفاشلة مع رجال بلدها أن تجمع المال

لتظل متحررة من الحاجة إلى الرجال وأن تنام مع من تشاء منهم، أي من يعجبها أكثر أو يدفع لها أكثر. لكل ذلك لم تهتم الشقراء بالعلاقة التي صارت تربط الأبيض بالأبله، فالمهم عندها أن يظل الأبيض ساعدها الأيمن وأن يظل قويا معافى سعيدا كي لا يشعر بالرغبة في الرحيل. غير أن الشقراء مع ذلك لم تستطع أن تخفي رغبتها في الأبله وميلها نحوه، ليس فقط بدافع من بعض الغيرة، ولكن لأن الأبله رجل حقا، فهو وسيم جدا وذو بنية قوية، وهو فوق ذلك أبله، أي أنه يشكل بالتمام نوع الرجل الذي يصلح عادة لهذا النوع من النساء.

انتبه الأبيض والأبله إلى هذه الرغبة وهذا الميل، فأمر الأبيض صاحبه الأبله بان يستجيب لها حين تشاء، ولم يلبث الثلاثة أن شكلوا أسرة واحة مبنية على أساس متين، فالشقراء في حاجة إلى فكر الأبيض وشاربيه، والأبيض في حاجة إلى مال الشقراء، والأبله في حاجة إلى رعايتهما معا لأنه مقطوع من شجرة، والشقراء والأبيض في حاجة إلى جسد الأبله الذي تشبه بنيته بنية جسد ثور لا يتعب. لم يكتشف أهل المدينة هذه العلاقة الغريبة التي صارت تربط الأبيض والأبله والشقراء لأن هؤلاء لم يتركوا لهم مثل هذه الفرصة، فهم يعملون بالنهار كأنهم غرباء لا يربط شيء بعضهم ببعض، ولكنهم في الليل ينامون في سرير واحد نوما هادئا وممتعا بعيدا عن أعين الأعداء والخصوم والرقباء والفضوليين.

لقد كان من الممكن أن تستمر حياتهم بهذا الشكل السعيد لولا تهور الأبله وحماقاته، فقد أصبح يتصرف في بعض الأحيان كأنه سيد الجميع، وقد يحدث أن يقول لنفسه أو لغيره أنه الوحيد الذي يعمل داخل البيت وأن من حقه أن يكون مالكا للبيت ومن فيه.

وذات يوم بالغ أحد السكارى في مداعبة الشقراء، بل تجرأ وانتزع منها قبلة بالقوة، فلم يستطع الأبله أن يتحكم في أعصابه وصعدت بقية من بداوة إلى رأسه فوجد نفسه يرمي بالسكير خراج الحانة بقوة تكسرت معها إحدى أضلاع ذلك السكير. وكان هذا الأخير تاجرا كبيرا ذا نفوذ، اتهم المسؤولين عن الحانة بالسطو عليه في حالة سكر وتجريدهم له من بعض المال مع استعمال الشقراء في إغرائه مادة مغشوشة. فكانت محاكمة وإغلاق للحانة وتهديدات متعددة بالسجن والاغتيال.

فكر الأبيض في فتح حانة أخرى في مكان آخر، وفكرت الشقراء في العودة إلى بلدها. وحين أحصت أموالها وجدت أنها جمعت حمولة ثلاثة صناديق متوسطة الحجم. فقالت للأبيض والأبله في كثير من الاستعطاف:

- إن ثروتنا الحالية تكفي لبناء مصنع متوسط وتجهيزه، فلنعد إلى الوطن لنتابع حياتنا السعيدة، نأكل ونشرب ونسهر

وننام. قال الأبيض: لا مانع لدي. وقال الأبله: لا أستطيع أن أرحل معكما رغم أني لن أطيق الفراق.

سألاه:

- لماذا ؟

سكت.

عادا يسألانه. قال:

- أريد العودة إلى القرية !

- لماذا ؟ سأل الأبيض.

- أحب صيد الأرانب بالمصيدة.

- عندنا أرانب ومصائد.

- لكنها ليست كأرانب الجبل في القرية.

- لم أفهم، قالت الشقراء

علق الأبيض:

- ولا أنا فهمت شيئا.

ثم أمهلاه وانتظرا: حماقة، شطحة من شطحاته، قد يعود إلى رشده (قالت الشقراء) !

وفي اليوم التالي سأله الأبيض:

- ماذا قررت ؟

- أعود إلى القرية.

- ولكن، لماذا ؟ إن جوابك بالأمس لم يكن مقنعا، بل على العكس، كان فارغا وساذجا.

- أقول الحق ؟

- قل، نعم، (قالت الشقراء والأبيض بصوت واحد).

- أحب !

- تحب ؟ (تساءلت الشقراء والأبيض). ومن تحب ؟

- أحب جدتي وأريد أن أبقى قريبا من قبرها. أنا وعدتها بهذا قبل أن تموت.

علقت الشقراء: جن، والله جن الأبله.

وأمهلاه يوما آخر. لكن الأبله تمسك بموقفه. حاولا أن يغرياه، أن يقنعاه، استعطفاه، لكي لا يضع حدا لهذه الحياة السعيدة. لكن الأبله لم يغير موقفه.

آنئذ خطرت للأبيض فكرة: إذن نذهب معك إلى القرية، تزور قبر جدتك، ثم نأخذ معنا القبر ونرحل.

- لا، نذهب إلى القرية جميعا ونبقى هناك.

قالت الشقراء: كما تشاء.

وغمزت للأبيض، ثم جرته وهمست: نقضي هناك شهرا أو شهرين، نستريح، ينسى الحكاية ونأخذه معنا.

عاد الأبيض يطمئن الأبله:

- كما تشاء !

- إذن نحتفل بالمناسبة، قال الأبله.

وعند نهاية السهرة ناموا معا كالعادة. وهمس الأبله وهو ينصت إلى شخيرهما: لو أصرا قليلا لتبعتهما، غبيان !

استيقظوا في الصباح عند الفجر. استأجروا ثلاث شاحنات ملأوها بكل الضروريات وساروا نحو القرية وهم في أتم السعادة. وهنا أنشأوا ما نعرف من منشآت.

ومر الشهر الأول، والعام الأول، وتعاقبت الشهور والسنوات ولم يتحدث أي منهما عن الرحيل.

***

طبعا، ليست هذه الحكاية هي الوحيدة التي بناها خيال القرية، ولكنها كانت من منطق ذلك الخيال ومن منطق الواقع أيضا الرواية الأكثر احتمالا، فصارت لذلك الرواية الأكثر شيوعا وإقناعا.

غير أن هناك جماعة لا بأس بها تمسكت بهذا التعديل:

لم تكن للأبله أية علاقة جنسية لا بالأبيض ولا بالشقراء. فقد كان مجرد خادم أمين ومطيع في الحانة، ولكنه كان حريصا على التوفير، محببا لدى الزبائن بشكل جعلهم يجزلون له العطاء ويجمع مالا كثيرا بسرعة، وقد استطاع أن يقنع الأبيض والشقراء بإمكانات الثراء المتوافر في القرية وأن يصير شريكا لهما.

أما الشبه بين الولدين وبينه فيرجع إلى أن المرأة توحمت عليه بالفعل.

***

هناك جماعة أخرى، لكنها صغيرة، تمسكت بالتعديل التالي:

هل تعتقدون حقا أن الأبله يمكن أن يجمع مالا ؟ ألم يكن بيننا خاملا وغير قادر على العمل وزاهدا في المال ؟ إن الأبيض والشقراء إنما جعلا منه شريكا لهما لأنه يعرف القرية، أهلها ومناطقها وأسرارها ولغتها. تقولون إنه من المستحيل أن يعيش رجل مثل الأبله بدون امرأة طوال هذه المدة ؟ وما قولكم في القديسين والرهبان ؟ أليس أبله مثلهم، أي أبله لا يشبه أحدا ؟

باختصار، في مثل هذه التفاصيل تختلف الروايات التي ابتدعها خيال القرية أو أكملها. وهي تفاصيل مهمة، ما في ذلك شك. لكنها على العموم لا تغير من جوهر القضية. وهي لا تهمنا هنا إلا بقدر ما أثارت من دهشة خبيثة لدى الناس وبقدر ما ساهمت في قلب الصورة البريئة التي كانت للناس عن الأبله منذ غادر القرية وبعد أن عاد إليها، أي قبل مجيء المعلمة الشقراء.

ونحن نستطيع الآن أن نستخرج من حياة الأبله أربع صور متناقضة له تملأ عقول الناس:

الصورة الأولى: وهي صورة الأبله الخامل صاحب الحماقات المسلية للنساء عند غيبة الرجال وللرجال عند رجوعهم من عملهم.

الصورة الثانية: وهي صورة الأبله الذي نجا من الموت، الأبله الذي لم يحارب ولم يختف كما حارب الرجال أو اختفوا.

الصورة الثالثة: وهي صورة الأبله اللوطي الذي يصل إلى كل هذه الثروة وكل هذا الجاه بواسطة عضو صغير من أعضاء جسده.

الصورة الرابعة: وهي صورة الأبله الخادم أو الأبله الذليل الذي يشبه بشكل من الأشكال القديس العامل على سيادة الحضور الإلهي في الأرض، ذلك الذي لا تهمه إلا مصلحة السماء والذي لا يراعي مصالح الناس إلا باعتبارها مؤدية إلى مصلحة السماء أو لا تتناقض معها.

علمنا أن التناقضات قد ظهرت في حياة الأبله بمجرد موت الشقراء أم الأولاد، وقد أدت هذه التناقضات إلى دهشة مفزعة عند الناس، وهي لم تكن مجرد دهشة أخلاقية وإنما كانت أيضا دهشة نفسية ودهشة فكرية، فهي إذن دهشة شاملة بهذا المعنى الأخير وبمعنى أن الدهشة صارت أيضا قلقا وانفعالا وتساؤلا، وبعبارة أوضح صارت هذه الدهشة إشكالا فكريا يعيشه الناس في شكل انفعال مقلق لأنه مبني

على الشك والتساؤل وعدم الرضى، ويمكن تلخيص هذا الإشكال بالصيغة البسيطة التالية:

كيف يمكن أن نفهم حياة الأبله وسلوكه ؟ وما هو السبيل إلى هذا الفهم؟ ما علاقته بالشقراء والأبيض والأولاد هل هو أبله حقا أم ولد حرام ؟ بأي شكل قبلنا ونقبل أن نعيش معه في الحرام ؟ الخ ...

من المؤكد أن فهم الأبله من طرف الناس لم يكن ليتم من غير أن يفهموا أنفسهم أولا، وبالتالي من غير فهم للعلاقة التي تربطهم بالأبله. هذه العلاقة لم يضعها أحد موضع السؤال لأن أي أحد لم يفهمها على صورتها الحقيقية ومحدداتها بالرغم من أنها تبدو منذ البداية علاقة غريبة ومفروضة من خارجهم وغير مقنعة في جوانبها الإنسانية. فالفهم كما هو معروف في مثل هذه الحالات فهم مزدوج، وإذا بدأ من جانب فإنه بالضرورة يصل إلى الجانب الثاني ويقترن به، وبغير هذا لا يكون فهما.

لعل هذا هو ما أدركه الأبيض حين أوحى إلى الأبله بأن يتزوج وأن يتزوج بفتاة من القرية، وتعمد الأبيض أن يتحدث مع الأبله في هذه المسألة على مرأى ومسمع من الخدم. أعلن الأبله قبوله وبصوت عال وصل إلى آذان كل الخدم. ثم سرى النبأ بين الآذان كنوع من المعجزة أو كأنه برقية حرب مستعجلة.

أصبح الناس وهم لا يتحدثون إلا عن هذا الموضوع، وأخذوا يتبارون في ترشيح أجمل بنات القرية، بل صارت تحدث خصومات بين الفتيات والعائلات وبين بعض الشبان، وقد كثرت الخصومات بشكل أنسى الناس الاهتمام بحياة الأبله السابقة.

***

لما طال انتظار الناس وطالت معه الخصومات من غير أن يبدو على الأبله أنه عازم على تنفيذ قراره، تقدم رجل عجوز وطلب مقابلة الأبله.

ولما مثل بين يديه سأله الأبله عن الهدف من الزيارة بأدب:

- أهلا بالشيخ الجليل، لقد وصلتنا أخبار اعتكافكم على العبادة، وعرفنا أنكم تدعون لنا في كل صلاة، فهل من حاجة نقضيها لكم ولو من باب الجميل.

- ليس من أجل هذا جئت !

- ومن أجل ماذا ؟ أطال الله عمر سيدنا الشيخ.

- لي ستة عشر ابنا ...

- بارك الله فيهم وجعلهم من الأوفياء المطيعين.

- ولي بنت واحدة !

- جوهرة البيت.

- سنها . . . .

- من العيب الحديث عن سن البنات.
- جئت أطلب يدك لها لتكون زوجة لك في الحلال.
- ونحن نقبل الطلب ونعتز بشرف مصاهرتكم.
- لكنها عانس.
- ولو . . .
- لكنها خرساء.
- ولو. . .
- وحولاء
- ولو. . .
- وتكره الرجال !
- هذا نصيبي. قبلته، فلنتحدث عن المهر.
- أن تخلصني منها، هذا كل ما أطلبه.
- غدا نبدأ ترتيب الأمور. . .

دام العرس أسبوعا بأكمله. ثم بنى الأبله للخرساء الحولاء قصرا كبيرا ونقلها إليه. ثم بنى بالقصر جناحا ضخما نقل المعلمة إليه ونقل معها الأولاد ثم بنى جناحا أضخم انتقل إليه الأبيض، وبعد تسعة أشهر وضعت الخرساء الحولاء ولدا يشبه المعلمة الشقراء. تعجب الناس لهذه المصادفة الغريبة: كيف تلد خرساء حولاء ولدا بمثل هذا الجمال ؟ لكنهم لم يذهبوا بعيدا بهذا السؤال. فقد رأوها

حاملا حين جاءت تزور بيت والدها أول مرة بعد الزواج، ورأوا الحمل يكبر حين تكررت زياراتها لوالدها، وكل ظن كما يبدو من مثل هذه الحال إثم، وكل ظنونهم بشأن الأبله وأقاربه كشفت الأيام أنها واهية، فلا داعي إذن لمزيد من الظن، أي لمزيد من الإثم.

***

قرر الناس أن يرتاحوا من عذاب الظن والدهشة، لكن الأبله لم يترك لهم هذه الفرصة. فقد أوحى بدوره للأبيض أن يتزوج وأن تكون زوجته من القرية. عادت الأسئلة بالعشرات: هل يجوز شرعا وقانونا زواج أبيض من فتاة من القرية رغم أن الأبيض أصبح تقريبا واحدا من أهل القرية؟

لماذا لا يتزوج الأبيض من المعلمة الشقراء الجميلة ؟

لماذا لا يذهب إلى بلده ويتزوج من هناك ثم يعود ؟...

أسئلة كثيرة شغلت أهل القرية من غير أن تجد لها جوابا.

وزار آباء كثيرون جناح الأبيض سرا أو علانية وعادوا جميعا يملأ قلوبهم الأمل، فعادت الخصومات من جديد، وانقطعت رواسب الخصومات التي كان قد خلقها زواج الأبله، حتى أن شابا قتل فتاة زار أبوها جناح الأبيض سرا، وقتلت فتاة أخرى أختها الكبرى، وقيل أن أجمل امرأة في القرية وجد زوجها مقتولا بضربة فأس بباب بيته.

هذه المرة أيضا طال الانتظار وطالت الخصومات من غير أن يبدو على الأبيض أنه سيقوم بتنفيذ قراره، فكل الآباء الذين زاروا جناح القصر وعدهم الأبيض خيرا، ولكنهم ما زالوا في انتظارهم وخصوماتهم، لم يروا منه لا خيرا ولا شرا.

***

أمام دهشة الجميع، تقدمت فتاة وطلبت مقابلة الأبيض. وما كاد يراها حتى قال:

- أنت فتاة أحلامي، لقد انتظرتك طويلا، وكم رأيتك في منامي.

- ولكني خنثى !

- أنت فتاة أحلامي . . .

- لا أريد أن أغير من تكويني الجسدي شيئا.

- أطلبي ما تريدين في المهر . . .

- هل لاحظت أني عرجاء، وليست لي إلا رجل واحدة سليمة ؟

- المهر، قلت لك، لنتحدث عن المهر...

- هل تقبل أن تعتنق دين القرية ؟

- أعتنق من الأديان ما تريدين، ولك من المهر ما تشائين...

- ليس لي أقارب، مقطوعة من شجرة، ولقيطة.
- هذا أحسن لي ولك، فأنا أيضا مقطوع من شجرة . .
- أصاب بالصرع من حين لحين.
- أصاب معك حين تصابين . .

لم تخرج الفتاة بعد ذلك من القصر. أما القرية فقد دعيت إلى حفل عام دام يوما وليلة أضيف إليهما يوم للاستراحة.

***

مرت تسعة أشهر، ثم عام، ثم سنتان، ولم تلد العرجاء على عكس ما كان ينتظر الجميع. لذلك زادت ظنونهم وعادت إلى الظهور من جديد، بل صاروا يسخرون من الأبيض.

وكأن الأبيض انتبه إلى بعض ما يدور في أذهان الناس وألسنتهم، فقرر أن يبني قصرا بعيدا عن قصر الأبله. ولما مرت تسعة أشهر على انتقال العرجاء إلى هناك وصل إلى أسماعهم أن العرجاء قد وضعت ولدا. ومرت ثلاث سنوات فرأوا طفلا أشقر يشبه المعلمة الشقراء يهرب من داخل القصر ليقوم ببعض الحماقات والعرجاء تتبعه بعصا مهددة. ثم رأوا بعد ذلك طفلا آخر يشبه المعلمة الشقراء، ورأوا مع توالي السنوات نفس المشهد يتكرر باستمرار، وفي كل مرة تخرج العرجاء بعصاها وراء الأولاد متوعدة مهددة.

أما في قصر الأبله فقد تعدد الأولاد الذين يشبهون المعلمة الشقراء. ولكنهم لم يروا الخرساء الحولاء إلا وهي ذاهبة إلى بيت أبيها أو عائدة منه يحيط بها الخدم والعبيد.

ومع مرور الأيامى كاد الناس أن ينسوا مرة أخرى تلك الشبهات المتعلقة بعلاقات الأبيض والأبله والمرأة الشقراء الراحلة لولا هذا الشبه الغريب الذي يجعل أبناء الأبله والخرساء وأبناء الأبيض والعرجاء صورة من المعلمة الشقراء.

تمنوا لو ترحل هذه المعلمة أو تتزوج، خاصة وأن الأولاد الكبار، أولاد الشقراء الراحلة، قد كبروا وتركوا القرية من أجل متابعة الدراسة، وأن المعلمة صارت عاجزة فيما يبدو عن الجمع بين تربية أبناء الأبله وتربية أبناء الأبيض الذين يتكاثرون حتى شبهوا بأبناء الأرانب وصار الأبيض يفكر في جلب معلم للأشراف على تربية أولاده وتعليمهم. لكن الشقراء ظلت معلمة الجميع ولم يأت المعلم الجديد.

***

أثناء حوادث الزواج ظهر رجل متسول ادعى أنه من عائلة الأبله، وهو رجل يدخن كثيرا ويشرب كثيرا ويعرف كيف يجعل الإنسان يخرج الصدقة من جيبه أو بيته، وأينما ذهب يقول بمناسبة أو بغير مناسبة: أنا من عائلة الأبله، والله أنا فعلا من عائلة الأبله.

لم يصدق الناس المتسول، فهم يعرفون أن الأبله مقطوع من شجرة. لكن الأبله سمع بالرجل المتسول الذي يشرب الخمر الرديء أو الكحول الخالص ويدخن الكيف ويرعى القمل في كل ناحية دافئة من جسده كأنه مزرعة متنقلة لتربية القمل، ويدعي في جد أنه من عائلة الأبله. استدعى الأبله المتسول إلى بيته. وحين خرج المتسول من الحمام وارتدى الثياب التي أرسلها إليه الأبله شم كل جزء من جسده مركزا على الخصوص على الصدر والإبطين ثم ابتسم وقال للخادمين اللذين كلفا بالإشراف على نظافته:

- أنا حقا من عائلة الأبله، ومن عائلة الأبيض أيضا.

قال الخادمان بصوت واحد:

نعم سيدي، نعرف ذلك . . .

ابتسم المتشرد:

نمشي إذن:

فتقدمه الخادمان نحو قصر الأبله حيث وجدوا الأبله واقفا بالباب لاستقبال الزائر. فلما رآه الخادمان صاحا:

- مولانا الأبله، أدام الله عزه ونعمته.

ثم أشارا إلى المتسول الذي كان لا يزال يبتسم:

- الغصن الذي ضاع من شجرة مولانا الخصبة.

انحنى المتسول على اليد الكريمة مقبلا. ثم دلف وراء الأبله داخل القصر، بعد طقوس الاستقبال العادية في مثل هذه المناسبات سأله الأبله:

- من ناحية الأب أو الأم ؟

لم تفارق البسمة فم المتسول:

- والله، لا من هذه ولا تلك.

بدا الأبله حائرا:

- من ناحية الله ؟

- ولا من هذه، فإلهي يختلف كثيرا عن إله سيدي.

كشر الأبله:

- وكيف تدعي القرابة منا ؟

وقف المتسول وهو يحتفظ ببسمته:

- أرجو أن يسمح لي مولاي أن أشرح له الأمر في أذنه.

- لكن، لا أحد معنا. تكلم.

اعتذر المتسول:

- لكن للجدران آذانا يا سيدي.

تنازل الأبله عن بعض كبريائه:

- كما تشاء، إنما لا تقترب كثيرا.

وتقدم المتسول من الأبله وأسر إليه بكلام تركه مبهوتا بعض الوقت. ثم استعاد الأبله وقاره. وكان المتسول لا

يزال واقفا بالقرب منه.فنهض الأبله واحتضنه وقبله بحرارة.

بعد هذا أرسل الأبله في طلب الأبيض. فلما حضر هذا الأخير ونظر إلى المتسول بدا وكأنه لم يعرفه. لكن الأبله أسر إليه بشيء فقام الأبيض واحتضن المتسول وقبله.

***

حاول الخدم كالعادة أن يعرفوا سر ما يحدث، لكن لم تسعفهم آذانهم فاكتفوا بما رأت عيونهم وبعض ما التقطته آذانهم: رجل ليست له أية قرابة بالأبله والأبيض، لا من ناحية الأب ولا من ناحية الأم ولا من ناحية الله، ولكنه مع ذلك يدعي أنه من عائلتهما، رجل لا يستطيع أن يتعرف عليه في البداية لا الأبله ولا الأبيض، ولكنه يستقبل بعد هذا بالأحضان من طرفيهما. وهكذا ظل السؤال معلقا:

ما نوع القرابة الموجودة بين الأبله والأبيض والمتسول؟

***

مع مضي أيام الضيافة استطاع أحد الخدم أن يشاهد المتسول يخرج من صدريته صورتين ويمدهما إلى الأبله، واستطاع ذلك الخادم أن يتبين أن الصورة تضم الأبيض والأبله والمتشرد والشقراء الراحلة. لم يتأخر في نقل ما رأى خارج القصر، فتأكد الناس أن هناك علاقة بالفعل بين كل

من الأبله والأبيض والمتسول والشقراء. لكن ما نوع هذه العلاقة ؟ لم يقدروا على أكثر من التخمين. غير أن التخمين لم يخدمهم هذه المرة. ومع ذلك فإن هناك أمرا يظل مؤكدا وهو أن هذه العلاقة ترجع إلى حياة الأبيض والأبله والشقراء الراحلة قبل مجيئهم إلى القرية. وعلى ضوء هذا الأمر المؤكد فإن أول فرضية تبدو أقرب إلى الواقع هي القول بأن المتشرد ربما يكون شريكا لهم بالمدينة، وربما يكون هو المالك الحقيقي للحانة، لكنه حين وقع ما وقع بسبب تهور الأبله كان خارج المدينة في رحلة طويلة. فلما عاد لم يجد لهم أثرا. ولما كانت الحانة مصدر عيشه الوحيد فإنه عاش في فاقة، وأخذ يبحث عنهم في أماكن بعيدة إلى أن اهتدى أخيرا إلى أنهم لم يسافروا إلى مكان بعيد، وإنما اختاروا هذه القرية الصغيرة التي تحولت منذ عودتهم إلى مدينة حقيقية. وربما كان المتسول قد دخل السجن بعد المحاكمة واتفق معهم على هذا الحل. غير أن المعاناة في السجن غيرت من ملامحه كثيرا، فوجد الأبله والأبيض صعوبة في التعرف عليه. وبما أن الجماعة منذ بدايتها ظلت مخلصة للعقد الشفوي الذي كان يربط بين عناصرها فإن المتشرد لم يجد أية صعوبة في الاندماج فيها من جديد، وفي استرجاع حقه. لقد تأكد هذا الزعم أو كاد حين شيد للمتسول قصر خاص به وحين صار فجأة زوجا للمعلمة الشقراء وصار له الحق في التصرف داخل القرية كما يتصرف

الأبله والأبيض. ويظهر من خلال الوقائع المتتالية أن الجماعة كما اعتبرته شريكا تاما في رأس المال اعتبرته أيضا شريكا في الفوائد الكثيرة التي حصلوا عليها منذ مجيئهم إلى القرية.

ولقد حلت بفضل ظهور المتسول واندماجه في الجماعة من جديد مشكلة ظلت مصدر كثير من القلق والظنون، تلك هي مشكلة الشقراء المعلمة. ولكن حياته الجديدة صارت منذ بدايتها الأولى مصدرا لعدة مشاكل، ويمكن القول مع شيء من التحفظ طبعا إن كل المشاكل التي ستعرفها القرية منذ استقراره بقصره وزواجه بالشقراء سيكون المتسول وراءها بشكل من الأشكال، فهو يظهر على الأقل من الخارج وكأنه شخص لا يمكن أن يعيش بلا مشاكل، لا يكون سعيدا إلا بخلق المشاكل بالرغم من أنه لا يهتم مطلقا بحلول تلك المشاكل. وهذا الطبع شائع عند كثير من الناس، ولكنه عند المتسول من نوع خاص، فهو من جهة يميل إلى خلق المشاكل التي يكون لها صدى عند الجميع، وهو من جهة أخرى أبعد عن الطبع وأقرب إلى التطبع، وهو بالإضافة إلى ذلك في عمى تام عما يقوله ويراه في الناس وبعيد عن الاهتمام بأي توبيخ خارجي أو ذاتي. من هنا أهمية المشاكل التي خلقها المتسول في القرية. ولقد سبق القول أن هذه المشاكل قد بدأت منذ زواجه واستقراره مع الشقراء بالقصر الذي أمر بتشييده له الأبله. ذلك لأن أولاده خرجوا يشبهون الخرساء، ولأنه كان

يضرب المرأة الشقراء بشكل مبرح يجعلها تستغيث أكثر من مرة في اليوم، ولأنه كان ينزل إلى القرية ويشرب الخمر مع أهلها ثم يسكر ويصفهم بالحمير وقد يضرب بعض شبابهم واصفا إياهم بالنساء أو يعترض طريق بعض نسائهم وفتياتهم ويساومهن في شرفهن أو ينتزع منهن قبلات، ولو بالقوة.

والظاهر أن الأبله والأبيض كانا على علم بما يحدث، ولكنهما لم يحركا ساكنا بهذا الشأن. فأخذ الناس يتساءلون: لماذا لا يريحنا منه الأبله أو الأبيض؟ ومنهم من اعترض مرارا على هذا السؤال: بل لماذا لا نريح أنفسنا منه ؟

لقد كان واضحا أن تصرفات المتسول تزعج الأبله والأبيض مثلما تزعج بقية الناس. غير أنه لم يكن واضحا تماما لماذا لم يقدر أحد على وضع حد لهذا السلوك الوحشي الذي نرى مثله في سلوك بعض الشخصيات المهزوزة في أفلام رعاة البقر.

أمام هذه المعطيات الجديدة لم تعد علاقة الشركة كافية لتفسير سكوت الأبله والأبيض عن تصرفات المتسول ولا بد من فرضيات أخرى أكثر اتساقا. فالواضح أن الأبله يخافه، والأبيض يخافه، وكذلك الأهالي. أما لماذا هذا الخوف فإنه من السهل تفسيره عند الأهالي، ولكن من الصعب جدا تفسيره أو على الأقل فهمه عند الأبله والأبيض بواسطة فرضية الشركة وحدها. لذلك افترض الناس أن في الأمر

شيئا مريبا، كأن يملك المتسول مثلا سرا خطيرا يتعلق بحياة الأبله والأبيض والشقراء. وإذا صح هذا فإن المتسول يمارس عليهم مساومة جهنمية، وعلى هذا فإن الصورة التي شوهد وهو يقدمها إلى الأبله قد تكون مجرد نسخة من صور عديدة يحتفظ بها في مكان ما أو عند شخص ما لتنشر على الناس لحظة اختفائه أو موته، وبعبارة أدق: يملك المتسول سرا غريبا يجعل الأبيض والأبله تحت رحمته. وهذا ما يفسر خوفهما منه وسكوتهما عن تصرفاته الحمقاء. هذا إذن هو جوهر العلاقة المشبوهة بين عناصر هذه الجماعة، وهو السر في محاولات الأبله والأبيض إرضاء الرغبات الكثيرة والشاذة أحيانا التي يطلب المتسول منهما إرضاءها، وهو السر كما قلنا في سكوتهما المتواطئ عن مغامراته وحماقاته اللاأخلاقية في أغلبها، هذه الحماقات التي لم تبق مقصورة على الشبان والنساء والفتيات، وإنما تعدتهم لتمس الغلمان والعجزة إذ لم يعد خافيا على أحد أن المتسول يحب الغلمان ويتلذذ بتعذيب العجزة، خاصة في حالات سكره، وهو دائما سكران.

***

استطاع المتسول بعد كل حماقاته وبالرغم من كل حماقاته أن يستقل عن الأبله والأبيض وأن يرغمهما على التنازل له عن ثلث ما يملكان من الماشية والأرض والدور والحوانيت والمعامل وخشب الغابة والحمامات والأفران والآلات

والشاحنات والعمال والعاملات. وقد صار هذا الوضع الجديد سبب مشاحنات كثيرة بينه وبينهما، ولم تلبث هذه المشاحنات أن انتقلت إلى وضع أعم، إذ صارت تجري مثيلاتها أو تنعكس هي نفسها فتأخذ شكل خصومات حادة بين عماله وعمال الأبله والأبيض وبين نساء قصره ونساء قصر الأبله، وبين أبنائه وأبناء الأبيض والأبله وحتى بين حيواناته وحيواناتهما، بل صارت له شرطته وعسسه ومخبروه، ولم يخل يوم من المعارك بين هؤلاء وأعوان والأبله من شرطة وعسس ومخبرين.

جاء المتسول إذن إلى القرية كما تجيء النار والشيطان لينشر الخصومة والفتنة في كل مكان ووقت بالقرية. ولقد ظل يتأكد باستمرار أن الأبله والأبيض لم يعودا قادرين على وضع حد لهذه النار التي أخذت تلتهم الأمن والسلم في القرية، كما ظلت تتأكد الفرضية القائلة بوجود سر خطير يملكه المتسول، ولكن طبيعة هذا السر لم تتضح بعد. فلا أحد يعرف بالضبط من أين يستمد المتسول كل هذه القوة التي تجعله يقف في وجه الأبله والأبيض إلى حد المواجهة، بل إلى حد أنهما صارا يتوددان إليه، ويعرضان عليه الصلح في كل مناسبة، ويرسلان إليه الرسل من أجل الاجتماع حول مائدة واحدة والتفاوض ويسعيان إلى ذلك بالهدايا والتملق ونصح أعوانهما بالتسلح بالصبر واليقظة أمام استفزازات أصحابه وتحرشاتهم اتقاء للفتنة وحقنا للدماء. لكن المتسول لم يكن

يقابل كل هذا بغير التجاهل والبسمة الخبيثة التي لم تفارق شفتيه حتى حينما يكون في أعلى درجات سكره أو حماقته.

•••

مرت الأيام والشهور على هذا الوضع المتأزم. لم يفقد الأبله والأبيض الأمل في الصلح خلال هذه المدة. لكن المتسول لم يعد إلى رشده، وإنما ظل يرمي بالأعواد لتظل النار مشتعلة.

وقد زاد الطين بلة أنه رفع فجأة أجور عماله وأعوانه بحيث صارت مضاعفة بالنسبة لأجورهم السابقة وأجور أصحاب الأبله والأبيض. ولقد قلل هذا القرار من كراهية أصحاب المتسول له، ولكنه زاد في حقد الأبله والأبيض واعتبراه أكبر حماقة يرتكبها المتسول، فكل الحماقات الأخرى كانت توجب السكوت والتسامح، أما هذه فهي حماقة خطيرة، بل ضربة موجهة مباشرة إلى وجهيهما. فقد صار عمال الأبله والأبيض ومساعدوهما محط سخرية زملائهما الذين كانوا في خدمة المتسول. واستيقظ الأبله والأبيض ذات صباح ليجدوا عمالهم وأعوانهم مضربين عن العمل. ولم يكن من الصعب عليهم أن يتصوروا أن المتسول هو الذي أوحى إليهم بهذا الأمر بشكل من الأشكال، فالإضراب لم يكن معروفا في هذه القرية ولو كفكرة. غير أنهما بدل الزيادة في الأجور توسلا إليه أن يلغي الزيادة التي خصصها لعماله وأعوانه كي لا يضطروا

إلى الزيادة بدورهما في أجور أصحابهما واتقاء لفتنة أكبر، أي تجنبا لفتح باب الطمع عند العمال والأعوان لأنه باب إذا ما فتح ولو مرة واحدة لا يمكن أن يغلق، وهو أمر ليس في مصلحة المتسول مثلما هو ليس في مصلحتهما. ومع كل هذا سخر المتسول من توسلاتهما فاضطرا إلى الزيادة في الأجور.

غير أنهما لتحقيق التوازن زادا في أثمان المواد الاستهلاكية ولسان حالهما يقول: العبد وما ملك لسيده، شريطة أن تعطيه باليد اليمنى وتأخذ منه باليد اليسرى.

حين أقدما على اتخاذ هذا القرار كانا ينتظران أن يقوم المتسول بدوره بالزيادة في أثمان المواد الاستهلاكية بنسبة تتلاءم على الأقل مع نسبة الزيادة في الرواتب. لكن المتسول أمر المشرفين على مرافقه أن يحافظوا على الأثمان كما كانت قبل الزيادة في الرواتب. وصار يراقبهم بنفسه كي لا يستغلوا الفرصة للإثراء على حسابه وحساب عماله وأعوانه. والأمر من هذا كله أنه بمجرد ما زيد في أجور عمال الأبيض والأبله وأعوانهما أمر بزيادة أعلى في أجور عماله وأعوانه مع المحافظة على أثمان المواد الاستهلاكية على ما كانت عليه قبل الزيادة الأولى. ومع خروج هذا القرار وتطبيقه فور صدوره زالت تقريبا كل بقية الكراهية التي كان يكنها له أعوانه وعماله، وأخذ أعوان الأبله والأبيض أنفسهم ينظرون إليه بشيء من العطف والمحبة والتقدير، فهو في نظرهم قد صار رجلا طيبا

رغم حماقاته، وهو بالرغم من كل حماقاته أحسن من الأبله والأبيض. وذلك في الوقت الذي لم يعد فيه خافيا على أحد أن الأبله والأبيض قد وصلا إلى ذروة تحملهما ولم يعودا يطيقان هذه التصرفات اللامسؤولة التي ظلت تميز المتسول عنهما منذ أحلاه محل الشريك الكامل الحقوق، وبات واضحا بالتالي أنهما يتحينان الفرصة للقضاء عليه، وقد قيل أنهما كلفا من يقتله، غير أن هذا العميل قد أخطأ فقتل شخصا بريئا. والحقيقة أن المتسول اهتدى إلى حيلة لاتقاء مكائد الأبله والأبيض فجعل كثيرا من أعوانه المقربين يلبسون مثل لباسه ويمشون مثل مشيته ويتصرفون مثله في إطار الاحتفاظ له ببعض ما يميزه.

***

تغير موقف الأغلبية من المتسول وتبدلت الصورة التي كانت لهم عن هذا المتشرد الأصلع الذي كان يفتخر بصلعته ويقارنها بصلعة الأبله قائلا: أنا أصلع من الخارج، أما الأبله فهو أصلع من الخارج ومن الداخل أيضا. وذلك من غير أن يضحك أو يبدو أنه يضحك، فالبسمة دائما على شفتيه لا تفارقهما حتى في أحلك اللحظات.

لكن سلوكه حيرهم مع ذلك. فاختلفوا بشأن دوافعه. فهو إما مجنون حقا، وإما أنه ينتقم لسبب ما من الأبله والأبيض، وإما أنه رجل طيب في أعماقه رغم مظاهر الخشونة والوحشية في سلوكه وأقواله، والطيبون الحقيقيون كثيرا

ما يكونون هكذا، وإما أنه شخص ذكي جدا إلى حد المكر ويعرف كيف يكسب الكثير، وإما أن له مخططا آخر ليس المال عموده الفقري ولا الخير.

وعلى كل حال، فقد ارتفع إنتاج عماله وأعوانه وأقبلوا على العمل بجد وبحيوية. لكن إنتاج عمال الأبله والأبيض قد قل في المقابل وكذلك تزايد الإقبال على دكاكين المتسول ومرافقه الأخرى كالحمامات والأفران بينما كادت تقفل أبوابها حوانيت ومؤسسات الأبله والأبيض، وربما لأن الأولى ظلت تبيع بنصف ما تبيع به الثانية، والناس في مثل هذه الأشياء قد تغير البائع لمجرد أن غيره يمنح تخفيضا يساوي سنتيما واحدا.

***

قل الطلب على بضائع الأبله والأبيض وقلت القدرة الشرائية بالمثل عند أعوانهما وعمالهما. التجأ إلى الإشاعة والقول إن المتسول يبيع بضائع مغشوشة، بضائع تتسبب في أمراض خطيرة مثل الشلل والسرطان. التجأ إلى المؤامرة: مات طفل بسكتة قلبية فدفعوا بأبيه إلى رفع دعوى ضد المتسول متهما إياه ببيع بضائع تصيب بالسكتة القلبية. تعددت الإشاعات والمؤامرات. لكن المتسول أظهر قدرة فائقة على استغلالها وتحويلها ضد مروجيها .. وبدا أن الحرب الأهلية آتية لا ريب فيها.

الغريب حقا في هذه المسألة أنه في الوقت الذي ازدادت فيه سخرية أعوان المتسول وعماله من أعوان الأبله والأبيض

وعمالهما ازداد هؤلاء تقربا من أولئك خاصة عندما فتح المتسول ملهى كبيرا لأصحابه وسمح لأصحاب الأبله والأبيض بارتياده من غير قيد ولا شرط معتبرا إياهم مثل أصحابه فصاروا يسهرون معا ويشربون معا ويلعبون معا كأنهم أسرة واحدة.

باختصار صار الناس يشترون من حوانيت المتسول ويدخلون حمامه ويشترون الخبز من فرنه ويرتادون ملهاه ويثنون عليه سرا وعلانية. وصار المتسول أكثر حكمة وتعقلا في تصرفاته مع الناس إلى حد جعلهم ينسون ما تقدم من حماقاته وتصرفاته الوحشية، بل صار رجلا طيبا وكأنه خلق من جديد.

صار المتسول إذن نموذجا للسيد وعماله نموذجا للعمال.

فلا غرابة أن يصاب الأبله والأبيض بما يشبه الجنون الذي يحرق الأعصاب ويتسبب في الأرق وضيق النفس. لكن الأغرب من كل ذلك أن يظل الأبله والأبيض دائما وعلى العموم، أي رغم الإشاعة والمؤامرة الفاشلة، في موقف الدفاع، وفي موقف الدفاع لا يحسد عليه سيد، غير قادرين على اتخاذ خطة هجوم واحدة في المجالات التي كان يهجم فيها المتسول.

ولقد اضطرا في نهاية المطاف إلى الزيادة في أجور عمالهما وأعوانهما كما اضطرا إلى التنازل عن الزيادة الأولى في المواد الاستهلاكية.

بهذه الطريقة تساوى رجالهما مع رجال المتسول. غير أن هؤلاء طالبوا المتسول بزيادة أخرى لكي يظلوا متميزين عن رجال الأبله والأبيض. ولما طلب منهم المتسول أن يمهلوه بعض الوقت، أن يدعوه يفكر في الأمر قليلا فعلوا ذلك، لكنهم اعتبروا موقفه مراوغة وتملصا.

ولما طال تفكير المتسول في المسألة أصابهم اليأس وأيقنوا أنه لم يعد قادرا على الزيادة في أجورهم فتناسوا القضية وكان لسان حالهم يقول: يجب أن نعمل أكثر لنستحق الزيادة، فالرجل لم يعد وضعه المالي يسمح له بالتضحيات والواقع أن عمال الأبله والأبيض وأعوانهم كانوا أكثر انتظارا وأشد معاناة من خلال ترقب زيادة المتسول في أجور عماله، فلولا زيادات المتسول في أجور عماله لما حصلوا على أية زيادة من طرف الأبيض والأبله. وتناسى رجال المتسول وما تناسى رجال الأبيض والأبله. لكن العام بأكمله يمر ولا خبر عن الزيادة.

آنئذ ارتاح الأبيض والأبله واعتقدا أن وقت المصالحة قد حان فقررا أن يقابلا المتسول وأن يعرضا عليه الجمع بين ممتلكاتهم من جديد وحددا يوم الجمعة الأول من الشهر الخامس موعدا لذلك.

***

مساء يوم الخميس الأول من الشهر الخامس دخل المتسول فجأة على أصحابه بالملهى وأمر بالشراب للجميع

على حسابه. فلما أفرغ الشراب في الكؤوس، رفع كأسه وطلب أن يشرب الحاضرون نخب العهد الجديد .

وشرب الحاضرون: نشرب نخب سادة العهد الجديد. لكن أحدهم بادر المتسول بالسؤال: أي عهد جديد تعني ؟ كل حياتنا عهود جديدة. ابتسم المتسول وأثنى على صاحب السؤال فشدت إليه الأنظار قال: ابتداء من الآن، من هذا اليوم، الخامس من الشهر الخامس من السنة الوردية، ابتداءا من هذا اليوم وهذه اللحظة لم يعد هناك فرق بيني وبينكم - اسمعوا: لا فرق بيني وبينكم، هل . . . وصفق الحاضرون، فأفرغ كأسا أخرى في جوفه. ثم تابع: ابتداء من هذه اللحظة من هذا اليوم لم يعد فينا سيد وعبيد، أكون مثلكم تماما، صفق الحاضرون. أطالوا التصفيق.

سكت المتسول. وتساءل القوم: كيف نكون مثله، لا فرق بيننا وبينه ؟ هل يسخر منا ؟ وكيف يزول الفرق بين السادة والعبيد ؟ من يقود العالم إذا زال السادة ! نحن لا نريد إلا سادة عادلين وكرماء، وهو يقوم بهذا خير قيام.

كان المتسول يستعد للكلام، تعمد إسقاط كأسه، قال: نشرب مرة أخرى في صحة وعافية وطول عمر العهد الجديد. وطلب الشراب للجميع ثم قال: ما العهد الجديد ؟ ماذا أعني به ؟ أتنازل لكم عن كل ممتلكاتي لكي أصير مثلكم وعلى

أساس أن تصير الممتلكات جماعية وأن يصير العمل جماعيا، وأن تنظم حياتنا على هذين الأساسين.

بالطبع، لم يصدقه الحاضرون. قالوا: ها قد عاد مرة أخرى إلى حماقاته، ولكن طيبوبته معنا تشفع له، أضف إلى هذا أن من حقه بدوره أن تلعب الخمر برأسه، فليكن له هذا الحق علانية وليس سرا.

غير أن المتسول عاد يطالبهم مرة أخرى بشرب نخب العهد الجديد ثم صعد فوق طاولة وقال: اختاروا من بينكم عشرة رجال ولا مانع من أن تكون من بين العشرة نساء، ولنجتمع حالا للقيام بترتيب أمر هذه الملكية الجماعية، خاصة وضع لائحة الأعضاء والنظام الداخلي وكل ما يتعلق بالتسيير والإنتاج.

خلال يومين كانت قد اتخذت كل إجراءات نقل الملكية من ملكية فردية إلى ملكية جماعية، ولم يترك للمتسول سوى قصره. وهكذا أشعل المتسول نار الفتنة في القرية، فقد عاد إلى قصره في يوم التالي عند المساء فوجد الشقراء مشنوقة وأولاده مذبوحين من الوريد إلى الوريد، وبين الشقراء والأولاد كانت تتمايل لوحة كبيرة مكتوب عليها بالأحمر، وقيل بالدم: هذا جزاء من أراد أن يتنمرد، إنا كذلك نجزي المخطئين التائهين، لكنها مجرد بداية، بل أحسن: مجرد تحذير للذين هم في غيهم يتمادون.

واستيقظ الأبله عند الصباح فلم يجد أولاده والخرساء. وكذلك حدث للأبيض. سأل الأبله عن زوجته وأولاده عند الأبيض وسأل الأبيض عن زوجته وأولاده عند الأبله. وسألا عنهم عند الأصهار، ولكن لا أحد سمع ولا رأى. وعند منتصف النهار جاءت خادم تجري ومعها زوجها: وجدتهم معلقين ببعض أشجار الغابة. ويبدو أن الروح قد فارقت الجميع.

تميز الأبله غضبا وكأنه بركان ثم قال: والله لأ أدبن هذا المتسول الأحمق وأجعل منه عبرة للكلاب أمثاله.

والتفت نحو الأبيض الذي ظل ساكتا طول الوقت: وأنت هل تريد أن تظل مكتوف اليدين أمام ما يحدث الآن؟ فكر الأبيض طويلا ولم يقل شيئا. ولما أعيا الأبله الانتظار هزه بصرخة: يجب أن نفعل شيئا.

قال الأبيض: نعم، يجب أن نفعل شيئا.

وعاد إلى صمته.

***

ذهب أصحاب المتسول الذين صاروا شركاء له إلى أماكن عملهم فوجدوها محتلة من طرف رجال الأبله والأبيض. كان هؤلاء مجهزين بأسلحة عصرية وأخرى تقليدية، ولم يكن أولئك يحملون غير أدوات عملهم. خاف الشركاء.

قال أصحاب الأبله والأبيض: أملاك سيدنا ردت إليه، ومرحبا بكم إذا شئتم أن تعملوا مثلنا أجراء لا شركاء. ذهب الشركاء إلى قصر المتسول فوجدوه يحتسي خمرا. تساءلوا: كيف، يشرب الخمر منذ الصباح الباكر وكادوا ينسون سبب مجيئهم لو لم يسألهم وكأنه يسخر منهم: ما الخبر؟ أخبروه بما حدث. قال: هذه ممتلكاتكم، دافعوا عنها إن شئتم ألا تموتوا جوعا، أو اتركوها للأبله والأبيض يستعيدانها ليستعيدا معها التحكم في رقابكم وأعراضكم، إنما صدقوني إذا قلت لكم إنكم إن لم تدافعوا عنها لن تجدوا بعد اليوم ما تأكلونه ولا ما تشربونه، حتى الهواء، ستخسرون كل شيء، وأما أنا فلن أخسر شيئا. لقد صرت كما جئت، كما كنت دائما، وهذه أسمالي في انتظاري، انظروا كم هي جميلة هذه الأسمال.

تساءل بعض الشركاء: ولكن، كيف ندافع عنها ونحن بلا سلاح ولا تدريب ؟

عندئذ فتح المتسول خزانة فبهت أصحابه لما رأوا ما فيها من سلاح. وكانت هذه بداية الحرب التي ظلت تأكل القرية مدة شهرين.

***

في هذه الحرب الأهلية انقسم الناس كما علمت إلى قسمين:

قسم يدافع عن ممتلكاته، عما سموه بالعهد الجديد، وقسم يدافع عن ممتلكات الأبله وطموحه، عما سموه بالاستمرار أو الأصالة أو البقاء.

وهي حرب كما ترى قائمة على أساس مغلوط بالنسبة لجماعة كبيرة من الناس. لكن الناس في كل مكان وزمان هكذا، يخوضون حروبا قائمة على أساس مغلوط. والناس في كل مكان لا يعدم أن يوجد بينهم متسول أو متسولون يشعلون نار الفتنة البلهاء. كما لن يعدم أن يوجد من بينهم أبله أو بلهاء يحاربون الفتنة. ربما كانت هذه هي سنة الحياة. فهذه الحروب جميعا قائمة على أساس مغلوط، ولكنها لهذا السبب حروب ضرورية.

لعلك تسألني الآن عن دور الأبيض في كل ما جرى، فأنا لم أعد أذكر إلا اسم الأبله وحده بعدما كنت أذكره دائما مقرونا باسم الأبيض. والحق أن لهذا ما يبرره. فقد أخرج حقائبه وجمع ما يمكن جمعه من ثروته وعاد إلى بلده قبل نهاية الأسبوع الأول من اشتعال الحرب الأهلية في القرية.

إذن بقي الأبله وحده يدير الحرب ضد أعدائه. لكن الأبله لم يستطع أن يصمد طويلا أمام دهاء المتسول، فقد مني بهزائم متتالية، واستطاع شركاء المتسول أن يستولوا على كل ممتلكات الأبيض التي أخضعوها لنظام الملكية الجماعية بدورها، ثم شرعوا يزحفون نحو ممتلكات الأبله نفسه. منذ الشهر الأول

من الحرب ظهرت بين شركاء المتسول قيادة جديدة من مختلف الأعمار لم يكن أحد يتنبأ بها. وعند بلوغ هذه المرحلة من التنظيم كان المتسول قد صار متجاوزا من جميع النواحي. وعندما بحثوا ذات يوم عن المتسول ليشاركهم فرحة الاستيلاء على حصن من أهم حصون الأبله وجدوا رجلا في الملهى يشرب خمرا، وكان الرجل يلبس أسمالا ويلعب الورق وحده بصور عديدة. فلما تفحصوا الصور وجدوها تجمع بين المتسول والأبله والأبيض وبعض الجنود الأجانب. سأل أحدهم: هل هذا هو السر ؟ ثم أجاب: إذن هو السر.

***

سقال المتسول: انظروا إلى هذه الصورة إلى هذه المرأة كم كانت جميلة، لن أكتمكم أن الذي كان يهمني بالدرجة الأولى هو المرأة. عن أي شيء أتحدث ؟

كنا نعمل مرشدين ومخبرين، وبلغتكم عملاء، في هذه الفرقة، الفرقة العسكرية التي سبق أن حطت بالقرب منكم وكان الأبيض متخصصا في حضارة ما يسمونهم بالشعوب البدائية وكنت أنا والأبله من البلد نعرف لغته وشعابه وأهله. بعد أن عملنا في خدمة الفرقة زهاء تسعة أشهر اكتشفنا أن مع قائدها ثلاثة صناديق من الذهب الخالص. اتفقنا على أن نوقعها في كمين نصبه لها أهل البلد. نجا الأبله والأبيض وممرضة الفرقة التي أخبرتها بما اتفقنا عليه، لكنني أصبت

بكسر في عمودي الفقري. أما الأبله والأبيض فإنهم بدل مساعدتي حملوا الصناديق والمرأة وتركوني.

بعد أيام عثرت على جماعة من أهل البلد فقرروا محاكمتي بتهمة الخيانة الوطنية، لكني لما حكيت لهم قصة الكمين. من غير ذكر صناديق الذهب، عفوا عني وأمروا بإطلاق سراحي إذا أنا أقسمت اليمين على أن أقوم بشيء آخر مثل قصة الكمين.

لقد أقسمت لهم كما أرادوا والتزمت بالقسم كما ترون وإن كنت لم أغفل جانب الانتقام الفردي.

وهكذا تأكد لدى الناس أن الأبله خائن وانتهازي وعميل وتأكدوا من أن كل ما لفه خيالهم بشأنه حقيقي، الأمر الذي جعلهم يغضبون أكثر ويحاربون بعنف أشد، بل الأمر الذي جعل الكثيرين من أصحاب الأبله يتخلون عنه وينضمون إلى جماعة المتسول.

***

لما رأى الأبله الوضع الذي آل إليه والهزائم المتتالية التي لحقت به وأصحابه يتخلون عنه ورأى أن من بقي معه لم يعد قادرا على المجابهة، وأن الذي مازال قادرا على المجابهة لم يعد قادرا على النصر استنجد بصديقه حاكم المدينة واستنجد هذا الأخير بصديق آخر لديه فأرسل إلى الأبله مئات الجنود.

فلما خرج هؤلاء من القرية بعد أيام معدودة لم يتركوا بها غير فتيات لم يعدن يصلحن للزواج ورجل متسول يظهر كل ليلة مع العتمة محاولا أن يقترب من قصر الأبله. وأما أولاد الأبله ونعني بهم أولاد الشقراء الذي ذهبوا إلى المدينة لاستكمال الدراسة، فقد اغتيلوا وهم في طريق العودة إلى القرية لنجدة الأبله. مازال المتسول يقول: أنا وراءك يا أبله مهما طال الزمان. ومازال الأبله يقول: أنا وراءك يا متسول إلى يوم القيامة، فأين تهرب مني وأين أهرب منك ؟

***

ها أنت ترى يا ولدي أن الأبله ولد الحرام وأن الأبيض ولد الحرام وأن الشقراء بنت الحرام وأن المتسول ولد الحرام وأن أولاد الحرام يقتتلون في هذه الدنيا من أجل المال أو الجاه أو الانتقام، لكن أولاد الحلال هم الضحايا الذين يؤدون الثمن. والله إن الدنيا أيضا بنت حرام، فهي لا تعطى إلا لأولاد الحرام.

***

كانت الشمس قد طلعت من جديد، والجدة مازالت تلوك قطع الفحم الخشبي الأسود، لكنها فجأة سكتت، ثم كحت طويلا، ثم تجمدت في مكانها وعيناها مفتوحتان. قلت: نامت الخبيثة. وخرجت أبحث عن شيء آكله. أشعلت سيجارة. لكني حين حملت محفظتي وخطوت خارج الدار سمعت

صوت أمي. كانت تنوح. عدت إلى الداخل. قالت لي أمي: جدتك ماتت، ابحث عن جدك وأبيك، قد تجدهما في المسجد أو الحانوت. تساءلت هل هذا هو الموت ؟ هل الموت هو أن تحكي حكاية تصاب عند نهايتها بالسكتة القلبية ؟ يختلف الناس في وسائل الحكاية، فمنهم من يحكي بلسانه، ومنهم من يحكي بقلبه، ومنهم من يحكي بجسده، ومنهم من يحكي بصمته، ومنهم من يحكي بعقله، ومنهم من يحكي بعضوه التناسلي، ومنهم من يحكي بالآخرين كالأبله والأبيض، ومنهم من يحكي بنفسه كالمتسول، ومنهم من يحكى به، ومنهم من يحكى معه، ومن يحكى فيه، ومن يحكى له، ويحكى عنه، ولكن الحكاية في الجوهر واحدة، والنهاية واحدة، أو، على الأصح، مبدأ الحكاية دائما واحدة: احك حكاية ومت. أما الحكاية فليست في الجوهر واحدة، بل ليس للحكاية جوهر بمعزل عن الظاهر، كل الحكايات مختلفة في الظاهر، وإذن فهي مختلفة في الجوهر. صحيح أن هناك حكاية متشابهة، فحكاية الأبله مثلا مشابهة لحكاية الأبيض، ولكن التشابه لا يوجد إلا ضمن الاختلاف، فحكاية الأبله عند التدقيق ليست مشابهة في شيء لحكاية الأبيض، ولو في التفاصيل. أما حكاية المتسول فهي لا تشبه في شيء حكاية الأبله والأبيض رغم أنهم جميعا كما قالت جدتي أولاد الحرام. وفي أي شيء تشبه حكاية العرجاء حكاية الخرساء أو حكاية المعلمة الشقراء أو

حكاية أم الأولاد؟ كل الأشباه مختلفات، قال فيلسوف. يجب أن نحترس إذن من هذا الميل إلى التعميم الذي يطبع عقولنا الكسولة، أنه لا وجود في الواقع إلا للخاص والمختلف، وأما العام والمتشابه أو الوحدة فهي من خلق عقولنا أو هي على الأقل واقعة نسبية، ولنقل حيث يوجد التشابه يوجد الاختلاف. إن هذا الأمر البديهي يجرنا إلى الحديث عن شيء مهم جدا، ذلك هو الطريقة التي صورت بها الجدة حكاية أهل القرية. لقد صورتهم من جهة كقطيع متجانس، أي كأنهم نموذج واحد لكائنات لا اختلاف بينهما. وإذا صح ما سبق فإن هذا التعميم يصير لاغيا لأنه لا يمكن أن يوجد في الواقع، في أي واقع، تشابه بلا اختلاف، فلا بد أن يوجد مثلا من بينهم مجنون يرفض لعبة السيد والعبد أو عاقل يثور ضد الاستغلال والنهب أو جائع أو فاقد توازن أو مريض أو ثرثار أو قليل صبر توحي له النفس الأمارة بالسوء بشق عصا الطاعة والخروج عن قانون القطيع...ولقد صورتهم جدتي من جهة أخرى كدمى أو كراكيز تحركهما أيادي الأبله أو الأبيض أو المتسول كما تشاء. وهذا أيضا تعميم لا يصمد أمام أدنى تحليل ولا نريد أن نطيل بشأنه الكلام. لكن التحليل يبقى دائما نظريا من طرفنا، أي يبقى على مستوى الفكر النقدي. ألا يكذب الواقع الفكر أحيانا...؟ ما أكثر الوسائل التي يستعملها الإنسان لإخفاء هذه المأساة. وعلى كل حال

لقد ماتت الجدة، وفي حكايتها أخطاء بارزة ومغالاة لا تخفى على لبيب، ولكن اذكروا موتاكم بخير! بالمناسبة: أشعر ببعض تأنيب من ضميري. ذلك أني أحس بأني قولت الجدة أحيانا ما لم تقله أو على الأصح ما لم تقصده، وعلى الجملة قمت بتأويلات أو ملء لبعض الثغرات. غير أن كلام الجدة المتقطع الذي لم يكن يخضع لمنطق، وموتها المفاجئ وضرورة الترتيب والتنظيم، كل ذلك دفعني إلى إعادة صياغة الحكاية وإن كنت قد احتفظت بأخطاء الجدة كما جاءت في سياقها بلا زيادة ولا نقصان.

●

الكتـاب الثاني

الله......؟

قال جدي وهو يلعب بحبات سبحته وكأنه طفل يعوض غياب الحليب بالسكاتة: لن أعلق لا على كلام علمائك ولا على كلام جدتك، فالظاهر أن لا جدتك ولا علماؤك يعرفون شيئا حقا عن هذا الرجل، ولا هم يعرفون شيئا عن القرية وأهلها. أما كلام علمائك فهو مجرد حسن تخلص، وأما حكاية جدتك فهي مجرد وسيلة استعملت لكي تسرق منك الشوينغوم والأنس.

قلت لجدي عندئذ: ولكنك علقت !

فضحك ولم يقل شيئا. لكني أدركت لماذا رفض أن يعلق وعلق مع ذلك. فلقد مرت بالقرب من الدكان امرأة جميلة كاد يأكلها بعينه، لكنه، لكي لا يثير انتباهي، ظل يتكلم تلقائيا حسب السياق فجاء كلامه تعليقا من باب تداعي المعاني. إلا أن الولد الملعون مساعد جارنا مر كالبرق في تلك الأثناء

فرأى عيني الشيخ تنهشان جسد المرأة الجميلة ذات الخمار الأبيض فصاح كالشيطان: سد فمك الحاج، احذر الموت، خاصة الموت إعجابا، فقلوب الشيوخ ضعيفة والسكتة القلبية أفعى في كل مكان من جسد المرأة.

انتبه جدي على صوت الولد المشاكس: لعنة الله عليك يا أقرع، والله لا يقرع ولا يعور إلا البلاء المسلط. لعنة الله عليك، المسخوط.

تداركت الأمر: النظرة حلال يا جدي، إن النظر إلى الجمال يطيل العمر، والله جميل يحب الجمال، كما تعرف.

ابتسم الجد النحيف الدقيق الشفتين الذي يذكرني منظره بصورة يوسف بن تاشفين كما رأيتها وقد تخيلها رسام معروف، ابتسم فكشف عن أسنان بيضاء وطبيعية كأنها أسنان طفل لم تدخل فمه السوسة بعد قال: تشبه جدك، والله تشبه جدك، يبدو أن الرجال لم يعودوا يعطون للمرأة قيمة !

ومرت امرأة في حوالي الثلاثين مكشوفة الوجه والساقين داخل جلابية حريرية فتنهد جدي: كسدت هذه التجارة، تقاسمت وظائف العطار مهن عديدة، لكم قلنا لأبيك نحول هذا الدكان إلى مكان لبيع الثياب العصرية الخاصة بالنساء أو بيع العطور ووسائل الزينة، لكن أباك مثل جدتك رحمها الله لا يريد أن يتطور، إنما كن على علم أني حذرت أباك ولا تقل في غيبتي إن جدي قد بخل علي أو على أبي بالنصيحة. أبوك

يا ولدي رأس عنيدة، يدور جبل ولا تدور رأسه، الله يهديه، تصور هذا الدكان مملوءا بالثياب النسائية الجميلة أو بالعطور ومواد الزينة.

تمنيت ذلك بالفعل. قلت: أستطيع أن أساعدك... عن طريق أمي.

أضاء وجهه:

فأحكي لك كل ما تريد من الحكايات، بل أجعلك مساعدا لي كي تتعلم التجارة، فالتجارة أحسن من العمل في وظيفة مع الحكومة.

***

بعد أقل من شهر كان جدي يجلس وسط العطور ومواد الزينة يداعب هذه ويغازل تلك، ينصح هذه أو يضحك ويغمز لتلك، فبدا كرجل في الأربعين، كامل الرجولة فرح القلب والعينين. بعض المهن تقتل الرجال قبل الأوان، خاصة الوظائف الحكومية، وبعض المهن تطيل في عمر الرجال والنساء، والتغيير في جميع الأحوال أمر ضروري، لا يجب أن يستمر الإنسان في تعاطي المهنة الواحدة أكثر من عشر سنوات، إنه يهرم حينئذ. هذا ما صار يردده الجد بمناسبة أو بغير مناسبة. ولم يعد خافيا على أحد أنه تغير بشكل جذري فقد صار يستيقظ باكرا جدا ومن غير أن يشكو من آلام المفاصل التي كانت تؤرقه، فيصلي الفجر بالمسجد

ويفطر بمقهى النسيم التقليدي ويكون دكانه أول دكان يفتح في الصباح. لم يعد يأتي ليتغذى في البيت، وإنما صار يتناول غذاءه بالدكان، وقد أصرت أمي على أن تحمله إليه بنفسها، وكان واضحا أنها لم تكن تقوم بهذا لوجه الله، فعارض أبي في البداية، ولم يجد بعد ذلك أمام إلحاحها وسيلة لمنعها من القيام بما كانت تسميه واجب خدمة أبيها.

أما في المساء فإن جدي صار يعود دائما متأخرا إلى البيت، يصلي المغرب والعشاء في المسجد، ولا نعرف أين يقضي الوقت الفاصل بين صلاتي المغرب والعشاء، الأمر الذي أثار بعض الشكوك بيننا في البداية. ولقد قال أبي مرة لأمي: أخاف عليه من كيد النساء. فسخرت منه أمي قائلة: خف على الدجاج مثلك، أما هو فإنه يستطيع أن يلعب بأشد النساء مكرا، لا يجب أن يخاف الإنسان إلا على نفسه. وتشاجرا طويلا بعد هذا. كان جدي يقول إنه زار صديقا أو قريبا بين المغرب والعشاء أو أنه ذهب إلى الحمام أو عند الحلاق أو الخياط أو استمع إلى درس بالمسجد. ولقد لاحظت من خلال حديثه ذاك، إذا كان صادقا طبعا، أنه أصبح يذهب إلى الحمام مرتين في ألأسبوع بعد أن كان لا يذهب إليه إلا مرة في الشهر وبعد تردد طويل قد يدوم أسبوعا كاملا. ثم أنه صار يذهب عند الحلاق مرة في الأسبوع وهو الذي ينسى أحيانا شعر لحيته ورأسه مدة سنة. أضف إلى ذلك، وهذا أغرب ما

في الأمر، أنه صار يزور الأصدقاء والأقارب مرتين على الأقل في الأسبوع، وهو المعروف عندنا في الأسرة بكراهيته لزيارة بيوت الأقارب.

لقد تغير الرجل بشكل غريب فبدا كأنه استعاد شبابه تماما واستعاد معه فهما آخر وممارسة أخرى للحياة. والذي أصبح يعجبني في هذا الشباب المستعاد أنه كان شابا مشغولا وسعيدا وذا شهية عظيمة للحياة. لكن المؤسف حقا في هذه المسألة أنه لم يعد يتوفر على الوقت ليحكي لي حكاية الأبله. كنت أذكره بها باستمرار.

أحيانا كان يفاجئني بقوله: لم أنس وعدي، سيأتي اليوم الذي تسمع فيه الحكاية الحقيقية. لكن هذه الفرصة لم تأت بالشكل الذي كنت أرجوه.

***

أصيب جدي بمرض مفاجئ ألزمه الفراش، وقد كان المرض في تقديري مرضا جنسيا أو له علاقة بالجنس ظل يخفيه ويعالجه بشكل بدائي إلى أن هده وأقعده. قضى بالفراش ثلاث أيام قبل أن يطلبني في اليوم الرابع ويأمرني بالجلوس بعيدا خوفا من العدوى. كان شاحبا ومنهوكا فبرزت غضونه بشكل بشع ومخيف.

سألني: تذكر وعدي ؟ الحكاية أعني.

أجبت وأنا أتمنى لو أنه يصمت ويتركني أنصرف:

- أذكر، فهل تحكي ؟

قال:

- سأطلب منك شيئا فعدني ألا تخبر به أمك أو أباك.

قلت محاولا أن أخفي إدراكي أنه يتآمر:

- أعدك

قال:

- خذ النقود من الصدرية واشتر لي علبة سجائر وثقاب.

- لكنك لا تدخن ...

- كلا، صرت أدخن.

- لا أفهم !

- ماذا تريد أن تفهم ؟

- منذ متى ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟

- ستعرف عندما تكبر

- لقد استرجعت شبابك بأكمله، بكل أخطاء شبابنا.

- عندما تكبر ستفهم كم من السم تضطرنا الحياة إلى تناوله رغم أنا نعرف مضاره معرفة كاملة، ائتني بعلبة سجائر وثقاب ولا تكثر من الكلام.

- أي نوع ؟

- كازا

وخرجت أشتري له ما أراد. خلال هذه العملية كنت أحس بأن هناك أشياء كثيرة لا أقدر على فهمها، أنا لا نعرف شيئا عن هؤلاء الشيوخ المجانين، لا نعرف أي شيء عن أي إنسان. ولم أهتم بما في هذا الكلام من تعميم.

***

أشعل السجارة وقال: في الحقيقة ما قصته عليك جدتك فيه شيء واحد صحيح هو الأسماء، والباقي من اختلاقها وخرافات صاحباتها.

- نبدأ بالأبيض إذا شئت.

- هذا الرجل الذي يشبه الدجاج الاصطناعي جاء يطوف بالبلاد قراها ومدنها ووديانها وجبالها على بغلة صفراء مستكشفا شعابها وأهلها واضعا التصاميم والخطط ممهدا لدخول فرقة عسكرية أو جماعية مستوطنة في إطار خطة شاملة ومحكمة وضعها الاستعمار قبيل مجيئه إلى بلدنا.

كان هذا الديك الاصطناعي يعرف لغة البلاد ويعرف تاريخها وعاداتها ويحفظ القرآن والحديث بالإضافة إلى الإنجيل والتوراة. أينما يحل يحل باسم الدين، يأكل ويشرب وينام ويخطب في الناس مشهرا بفساد حكامهم وضعفهم وتخاذلهم، مشيدا بالخير الذي يحمله الرجل الأبيض، مبشرا بالأحلام التي ستحقق والرخاء الذي سيعم الأرض والأهل مع الفرنسيس الذي يؤمن بالله والذي سيأتيهم بالعدالة

والأخوة والحرية والمساواة، ذلك الفرنسيس الذي يحمل رسالة إنسانية هي تمدين البدو الفقراء الجهلة وإخراجهم من الظلمات إلى النور ساعيا إلى نشر دينهم الحنيف وإحياء تراثهم الفني العظيم وأرضهم المحتضرة وأجسادهم الضامرة، وهو الذي يتميز عن غيره من الشعوب بأنه إنما يقوم بأداء رسالته تلك لوجه الله وحده غير طامع في جزاء أو شكر من العبد الكافر بكل نعمة.

هكذا يغرر الديك الاصطناعي في كل مكان بالفقهاء والعامة، فإذا صادف أن وجد في طريقه وطني أو ذكي أو حكيم أو مجنون فإنه يعرف كيف يجعل الناس تنهاه عن الكفر والجهل والجحود وتقمعه بالكلام المر أو التهديد إلى أن يقضي الأبيض ضيف الله واجب الضيافة، وهو كما تعلم ثلاثة أيام، والديك الداهية لا يمكث في أي مكان أكثر من ثلاثة أيام.

لهذا، فإنه يظل يطوف بالقرى على الخصوص، وقد استكان إلى أن حق الضيافة يحميه وأنه لا يمكن أن يجرؤ أحد على إيذائه وهو يحمل كتب الله في حقيبته وفي ذاكرته، ناهيك عن سلاح الإغراء والرشوة الذي لا يفارقه، فهو مسلم مع المسلمين ويهودي مع اليهود ونصراني مع النصارى، أي يحرسه ثلاثة أنبياء، وواله يملك الكون، وبشر يعبدون رب الكون ويطيعونه طاعة عمياء ويسيل لعابهم أمام الإغراء والرشوة، وهو يعرف أكثر من ذلك أن وراءه فرقة عسكرية

أو جماعة من غلاظ المستعمرين المسلحين، فإذا سلم فإنه مكرم، وإذا أصيب بأذى فإن وراءه مدفعا أو بندقية تحميه، وليس طائرة هلكوبتر كما قالت جدتك الجاهلة غفر لها الله.

أضف إلى هذا أن الديك الأبيض المسلوق كان يتقن كل الرياضات الحربية ويعدو أسرع من غزالة أو حصان ويخفي تحت إبطه مسدسين وذخيرة تكفيه للمقاومة حتى تصل الفرقة العسكرية أو جماعة المستوطنين، تكفيه عل الأقل للإخبار بأنه في خطر.

إلا أن الأهم من هذا كله أن قلبه كان مملوءا بالإيمان بما يفعل وعقله لا يفكر إلا بما أمر أن يفكر فيه بعد أن خضع لعملية غسل الدماغ والقلب، وقد اختير للقيام بهذه المهمة من بين عشرات المتطوعين نظرا لدهائه ومكره، وفي عينيه يلمع بريق الثروة والمجد. لم يكن الأبيض يطبق سوى مخطط أعد بعناية وبعد دراسة عميقة وشاملة شارك فيها كبار علماء بلاده، وإذا شئت تشبيها فإنه كان مثل كاشفة ألغام، أينما مر سالما تعرف الفرقة أو الجماعة أنه لا مقاومة بذلك المكان وأنه ما عليهم سوى التمركز في هذه النقطة والاستعداد بعد هذا للطوارئ، فالبدو مع ذلك قوم لا يؤمن شرهم، وهم في هذا يشبهون الهنود الحمر الذين تراهم في الأفلام.

هذا هو الأبيض، وهذه حقيقته، فمن أين لجدتك أن تعرف عنه كل هذه الأمور ؟

***

جاء الأبيض إلى قرية المنسية مثلما ذهب إلى قرى أخرى مشابهة ومثلما ذهب غيره إلى قرى أخرى بعيدة. فلما وصل إلى المنسية وقع عن حماره، فرضت رجله، فاجتمع حوله أهل القرية، فقرأ على مسامعهم آيات محكمات، فقالوا هذا رجل مسلم رغم بياض بشرته، أو هو نصراني قد أسلم، وعلينا واجب حمايته وعلاجه. فلما هموا بعلاجه قال:

أمهلوني يا مؤمنون.

فأمهلوه قليلا، ففتح المصحف، فقرأ في سره يسيرا،

فقال: - سبحان الله القدير الكريم، راجعت كتابه العزيز، فوجدت خبر هذه الحادثة في صورة الفاتحة.

وأذن لهم بعد هذا، فعالجوه. فلما استقامت الرجل وقل الألم قال:

- أمهلوني قليلا يا مؤمنون، بل أسندوني.

فلما أمهلوه يسيرا فتح الإنجيل وقرأ قليلا وقال:

- سبحان الله، وراجعت الانجيل فوجدت خبر هذه الحادثة في هذا اليوم وهذه الساعة وهذا المكان، ووجدت أني ملاق فيكم أهلا ونازل بينكم سهلا، وأني قاض من الزمان وسطكم ما شاء الله، وأن الخير ممطر عليكم بالأطنان. ثم رفع رأسه إلى السماء، فرأى غيمة داكنة، فقال:

- غدا تمطر السماء بإذن الله !

وفي الغد أمطرت بالفعل السماء فاعتبرت هذه من معجزاته العظام. لذلك أقاموا مساء اليوم الممطر حفلة عظيمة على شرفه فقام وخطب في الناس وحدث وأقنع، فقد رزقه الله بيانا وافيا وبرهانا قويا ونورا يشع كالنار من العينين. لكنه لما أراد أن يقوم وحده أدرك أن رجله ما زالت مريضة وأنه قد يضطر إلى قطعها أو المكوث بين أهل المنسية مدة طويلة صاح:

أسندوني يا مؤمنون.

فأسندوه، فطاف بنظره على الحاضرين يتفحصهم واحدا واحدا حتى تطيروا، فقال لما أصبحوا وكأن على رؤوسهم الطير:

- كان الفلاح الفقير منكم يترك عند موته الدراهم والقمح والبقرة والحمار والخراف لأولاده، ولكنه الآن لا يستطيع إلى ذلك سبيلا، بل هو يبيع المحصول والبقرة والحمار والخراف والثوب والغطاء لتسديد ما عليه من ضرائب وديون، وإذا لم يسدد ضرب وسجن، وإذا لم يسدد بعد الضرب والسجن تنزع منه أرضه ويؤخذ أولاده كرهائن، وإذا لم يسدد بعد هذا يضطر إلى بيع حرياتهم والدفع بهم إلى العمل كخماسين، وقد يضطر إلى دفع زوجته وبناته للعمل كخادمات في وضع العبيد.

وها أنتم اليوم ترون أرضكم تتقلص وأولادكم يستعبدون وبيوتكم تخرب، يهاجر منكم من يهاجر، وإلى أين

يهاجر؟ ويشرد منكم من يشرد، ويهلك منكم من يهلك جوعا أو هما أو تعذيبا. لم تعد لكم كلمة، ولم تعد لكم كرامة، وقد صرتم عاجزين عن توسيع أرضكم وعن اقتناء الممتلكات والماشية لأن ما يدفع عليها من الضرائب وما عليكم من ديون يفوق ثمنها وما تنتجه، ناهيكم عن تكالب المرابين والسماسرة. لقد صرتم لا ترثون عن آبائكم سوى الفقر، ولا تجدون عند حكامكم إلا الفلاقة أو السجن أو اليد الطويلة الممدودة إلى جيوبكم تفتشها وتأخذ ما تريد من غير ما شفقة ولا رحمة. هذا حالكم اليوم يا أولاد المنسية، وتاريخ المنسية معروف، وكرم المنسية معروف، وذكر رجالها قد سارت به الركبان، ومع ذلك يأبى القدر إلا أن يذلكم ويهينكم. إني بإذن الله جاعل منكم خير قرية أخرجت للناس. فأسندوني يا شباب المنسية، لا حرمتم من سند السماء، وسند الرب الذي في السماء، وسند ابن السماء.

هكذا خطب الأبيض الملعون فتمنى الناس لو أنه أطال. ولكنه أمسك عن الكلام في الوقت المناسب، فهو لا يريد أن يستنفد كل ما عنده من كلام. فلما أشرف على الباب الكبير بعد أن أسندوه رأى جماعة من أهل القرية تحمل رماحا وسيوفا. فسأل عنها، فقيل لهم رجال يقومون بدورهم في الحراسة، فضحك، ثم قال: - إذا كان لا يزال بينكم من يقوم بمثل هذه الصناعة - أعني الرماح والسيوف - اشنقوه أو أجلدوه

أو أرسلوه إلى ما وراء البحر ليتعلم كيف يصنع لكم سلاحا جديرا بقيمة المنسية في التاريخ، أما هذه التحف الأثرية فهي لم تعد صالحة للعصر، ثم أن القبائل المجاورة لم تعد قادرة على أن تغير عليكم، فقد أخضعت جميعها للمدفع، أما إن كنتم لا تعرفون بعد ما هو المدفع فاعلموا أنه الاسم الجديد للملائكة التي يرسلها ابن السماء إلى جانب عباده الأقوياء.

وأحس أنه بالغ في السخرية، وقبل الأوان، أي قبل أن يشعرهم بتمام الأمان، فقال: آه، آه، أسندوني، هكذا أسندوني كي لا توجعني رجلي، إني والله بدونكم لا شيء، ولكن بدوني لن يكون لكم في المستقبل شأن يذكر.

ولما أسندوه كما أراد، استدرك:

- أريد أن أحدثكم عن المعدة، فهو الحديث البليغ، وعن الكتاب والأمن، وإني لمضرب منذ الآن عن الكلام في غير هذه الأمور الثلاثة أريد أن تكونوا كأسنان المشط ورائي، إن هذه الخصومات التي كثرت بينكم مجرد تعويض، إنها قناة لتفريغ الغضب والقهر، وهي تفرح أعداءكم وتريحكم، وإني لأراكم اليوم كالذئب الذي صورته في الماء فارتمى عليها، فأخذ يفترسها ظاناً أنه يفترس عدوه، أي الذئاب الأخرى التي تنافسه في الصيد والسيطرة على الغاب، فظل كذلك لحظة، فإذا هو يغرق في الماء ويموت، وإذا هو يقول بعد فوات الأوان: لا تدع نفسك تصير عدوك، ولا تدع

أخاك يصير عدوك فيهلك وتهلك. فلا تحملوا على أنفسكم يا أبناء السماء، ولا تحملوا على أخوتكم، فهم بعض منكم، فيقع لكم ما وقع للذئب الجاهل، فتذهب ريحكم، ويفرح أعداؤكم. ولكن أين طعامكم، وأين مغنيكم ؟ إني لا أريد أن تحزنوا معي على هذه الرجل الملعونة، فهي قدر مكتوب في اللوح المحفوظ كما جاء في القرآن والإنجيل، ومن حسن حظي وحظكم أن ترض في تلك الساعة وذلك اليوم وهذا المكان. الطعام. الغناء. الرقص يا رجال.

أحس الديك الاصطناعي الداهية أنه قد وصل إلى قلوب الناس وعقولهم، وأنه قد نفذ إلى ذلك من أقرب الطرق: الحديث عن معدتهم، وعن أمنهم، وعن جيوبهم. وهي مفاتيح ثلاثة إذا توافرت كانت معها السعادة عند هؤلاء البدو المساكين، وطرق تؤدي إلى قلوب وعقول الملايين. فلما بلغ غايته قال إنه يريد أن يأكل وأن يسمع الغناء، فأحضرت الموائد وجيء بمغني القرية العجوز، وأبلى هذا الأخير البلاء الحسن في ذكر تاريخ القرية وأمجادها، ثم عرج على الديار يبكيها، ثم صعد فوق النهد وأمسك بالشفة يعصرها، وبدا كأنه صعد حقا فوق جسد امراة، ثم تحول عنها إلى أخرى وحين تفرقوا بعد نهاية الحفل لم يستطع أي منهم أن ينام قبل أن يمتطي جسد امراة أكثر من مرة. أما الشبان فقد باتوا مع الأبيض يسندونه كالشجرة، يطوفون به في الربى والوديان.

فلما وصلوا به إلى النهر الصغير الذي يجري سائبا نحو البحر من غير أن يهتم به أحد أوقفهم وقال:

- هذه هي الفرصة لتظهروا لي قوة شبابكم، أريد أن تحولوا مجرى النهر كي يصب في القرية فيسقي أرضها ويروي ماشيتها، وأريد أن تقوموا بهذا قبل طلوع الفجر. وشرع يشرح لهم كيف يجب أن يقوموا بالتحويل وكيف يجب أن يوصلوه إلى قلب القرية من غير أن تضيع منه قطرة واحدة.

***

لما استيقظ الكبار كان الشبان يغطون في نوم عميق وكان النهر يجري رقراقا في قلب أرضهم، فظنوا أن ذلك سحر ساحر، فهرعوا إلى الرجل يشكرونه، فوجدوه يصلي، فانتظروا أن ينتهي من صلاته فما التفت إلا حين صارت الشمس قرصا مشتعلا في كبد السماء، فلما التفت وجدهم وراءه يصلون، فقال: والعمل ؟ من يقوم بالعمل أيها المصلون ؟ إن العمل عبادة كما تعرفون، أعظم أنواع الصلاة، وعلى المرضى وحدهم والعجزة أن يصلوا النهار وبعض الليل كي يعوضوا العبادة المستحقة عملا بالصلاة، وأما أنتم فصلوا بالقدر الذي يطلبه منكم الدين ولا تقلدوني في الصلاة بعد اليوم، إني ما صليت بهذا الشكل إلا لأني عاجز عن العمل، وأما النهر فشبابكم هم الذين حولوه بمعونة الله ومشيئته، فلا تفهموا السماء خطأ ولا تفهموني خطأ وعليكم أن تكفروا عن

هذا الذنب بالصيام، صوموا اليوم عن الطعام، ولكن اعملوا كثيرا، اعملوا كي تشعر أجسادكم بألم الجوع واتخذوا هذا اليوم يوم صوم عام تكفيرا عن ذنوبكم الكثيرة في التأويل.

والآن هيا، أحب أن أراكم في حقولكم وأن أرى العرق يغسل خطيئتكم.

وتوقف عن الكلام، فهرعوا إلى حقولهم يكدون، فنادى على بعض الشبان، فقال أسندوني فأسندوه، وقال خذوني إلى الغابة فأخذوه، وهناك قال: برهنوا على أنكم حقا شباب، حطموا هذه الشجرة، وهذه، آه! أسندوني، وهذه أيضا. آخ، أسندوني، ووضع علامات على الأشجار التي طلب منهم تحطيمها، فلما حطموها قال: قطعوها، فقطعوها. فقال: والآن انتبهوا، سأعلمكم كيف تصنعون منها فحما نبيعه في أقرب قرية أو مدينة للوافدين.

وعلمهم كيف يصنعون الكوشات. فلما انتهوا من صنعها قال: أسندوني، فأسندوه، آنئذ كان الليل قد جثم على القرية، فلما اقتربوا من البيوت وجدوا أهلها نائمين، فأمر الشبان أن يوقظوا الكبار، فلما أيقظوهم قال: إلي بمغني القرية. فلما حضر المغني العجوز قال الأبيض: يجب أن تغنوا وترقصوا كل ليلة، فأنا أريد أن أفاخر بكم القرى والمدن، والغناء والرقص والموسيقى أشياء تطيل العمر، وتكثر الزرع

والولد، وأما الإكثار من النوم فهو كالإكثار من الأكل يقتل الهمة ويذهب الفطنة ويضر الجسد والأرض والنساء.

وحين أتم كلامه أشار إلى المغني فتقدم العجوز وداعب ربابه، فأطال في ذكر أمجاد المنسية، ثم بكى على الديار، ثم صعد فوق جسد امرأة وهمية، ثم صعد فوق جسد أخرى، وظل يركب وينزل نساء متعددات حتى أحس الرجال بالحاجة إلى زوجاتهم فأخذوا ينصرفون، فأوقفهم الأبيض قائلا: لا تقربوهن هذه الليلة، إن النساء كالأكل والنوم، لا يجوز تناول غير القدر الضروري. فعادوا ينصتون إلى المغني العجوز، ثم انصرفوا بعد حين وكأنهم خارجون من مخادع نساء من ألف ليلة وليلة، فصاح الأبيض في الشبان: أسندوني، فأسندوه. فلما أصبح غير بعيد من الغابة قال للشبان: أريد بيتا فوق هذه الربوة. فبنوا له بيتا من غرفة، فدخل إليه وأدخل معه بغلته وأغلق بابه، فناما معا، فغمز الشبان لبعضهم، فقال أحدهم: واختارها بغلة لأن البغلة لا تلد. فنهره آخر: ناس عندهم القدرة على حب البشر، فلماذا تستغرب أن يحب بغلته إلى الحد الذي يجعله ينام معها ؟ أولياء الله الصالحون هكذا.

***

كان جدي قد أخرج يده من تحت الغطاء ليشعل لنفسه سيجارة فسقطت خصلة من الشعر قرب السرير، لكني تجاهلتها لكي لا أحرجه وسألته عن الأبله:

- والأبله، أين الأبله، لماذا لم يظهر حتى الآن ؟

قال:

- الأبله ؟ أه الأبله. نعم الأبله. ولكن الحكاية مازالت في بدايتها. ومع ذلك لا بأس أن نبدأ الحديث عنه قبل أن ننساه.

- هل تشعر بالنوم ؟

- لا لا أشعر بالنوم ولا بالتعب. تابع.

فتابع:

- في هذه القرية لم يكن يوجد إلا تاجر واحد، رجل يشتغل ببيع القماش، وبعض المواد الغذائية، وكان الوحيد الذي يتردد على المدينة باستمرار، الوحيد الذي لا يحرث أرضه بنفسه، الوحيد الذي لا تذهب زوجته لتعمل في الأرض كما تفعل بقية نساء القرية. وكان الأبله وحيد أبويه. فالأبله كما ترى ابن تاجر، من عائلة لا تشتغل بالفلاحة لكي تأكل. لهذا السبب لم يتعلم الفلاحة كبقية الأطفال. لكنه لم يتعلم فن التجارة كأبناء التجارة لأن أباه كان يعتقد أنه مازال صغيرا رغم أنه كان قد تجاوز العشرين. وهكذا صار الأبله الشاب الوحيد الذي لا يعمل في هذه القرية، لا في الفلاحة ولا في التجارة ولا في أي شيء. فماذا يمكن أن يفعل شاب مثل هذا في قرية كالمنسية ؟ يستيقظ كل صباح باكرا فيتناول فطوره مع أمه وأبيه، وعندما ينصرف الأب إلى الدكان وتنصرف الأم

إلى المطبخ يحلق رأسه بعناية ويطليه بزيت الزيتون ثم يصعد إلى قمة الجبل ويجلس هناك مديرا ظهره للشمس إلى أن يحس بالبرد، فيعود إلى البيت ليأكل وينام بعد الأكل مباشرة. عندئذ يدخل في حالات غريبة من الهذيان والرؤى، يقضي الليل كما يقول مع الأنبياء والملائكة والشياطين الذين صاروا أصدقاءه المقربين، وقد يصرخ أو يمشي وهو نائم، لكن أمه وأباه لا يوقظانه مخافة أن يصاب بأذى.

هكذا يقضي الأبله أيامه ولياليه منذ أن تطل أول شمس ربيعية إلى غياب آخر شمس خريفية.

أما وقت الشتاء فإنه يصعد فوق سطح بيتهم ويخلع ثيابه ويظل جالسا من الصباح إلى المساء غير مكترث للمطر والبرد. وأثناء الليالي الشتوية يصاب بأنواع أخرى من الهذيان تختلف كل الاختلاف عن تلك التي يعيشها أثناء بقية الليالي.

كان من المنتظر أن يموت الأبله في أية لحظة، لكنه مع ذلك لم يمت، وقد استطاع أن يعيش أكثر من ستين سنة، وحكيت حوله أساطير كثيرة، لكنها لم تكن سوى أساطير للتسلية وتمضية أوقات الفراغ أو السخرية.

من جملة هذه الأساطير القول أن أمه رأت في المنام أثناء الشهر الرابع من حمله أن امراة بشعة جدا وسوداء كقطعة فحم قد هبطت عليها من غيمة سوداء وأخرجت من صدرها سكينا سوداء تقطر دما أسود وفتحت بطن الأم وانتزعت

منها الطفل ووضعته في خرقة سوداء ثم التهمته، فأخذت الأم تبكي وتصيح خوفا وفزعا، فنطق الطفل من داخل المرأة السوداء وهدأ من روع أمه قائلا:

لا تبكي يا أماه، فما أنا برجل ولا بامرأة حتى يخاف علي، ثقي يا أماه أن لا خوف علي لا من الرجال ولا من النساء.

فما أتم الطفل كلامه حتى حطت بالقرب من المرأة السوداء سحابة خضراء، فخرج منها رجل يلبس الأخضر والنور يشع من حواليه، فلما رأته المرأة السوداء تقيأت الولد وهي ترتعش خوفا. فعاد الولد إلى بطن أمه، فحرك الرجل الأخضر القضيب الأخضر الذي كان يمسك بيده اليمنى، فعاد بطن الأم إلى حالته الطبيعية من غير أثر أجرح، فهربت المرأة السوداء وسط السحابة السوداء، ثم عاد الرجل الأخضر إلى سحابته الخضراء ورجع من حيث أتى، فتكلم الطفل في بطن أمه قائلا لها:

- هل تعرفين ما أسر إلي به الرجل الأخضر ؟

فقالت الأم:

- ومن أين لي أن أعرف لغة الأرواح ؟

فقال الطفل:

- أخبرني بأني لن أحمل هما في هذه الدنيا، وأنكما لن ترياني رجلا شقيا، وأن أبواب الأرض والسماء مفتوحة أمام

قدمي. بكت الأم عندها فرحا وشكرت السماء والأرض وأولياء الله الصالحين.

لكن الطفل عندما خرج إلى الدنيا لم يبك كبقية الأطفال حين يخرجون إلى الدنيا أول مرة، بل خرج وهو يبتسم وفي يده اليمنى غصن زيتون صغير وفي يده اليسرى كرة ملونة ويقال إن الأطفال قد جاءوا من كل مكان في القرية ذلك اليوم، وطلبوا منه أن يلعب معهم فضحك ساخرا منهم ورمى إليهم بالكرة الصغيرة الملوثة وهو يقول في كبرياء:

- أنا لست طفلا فانصرفوا عني أيها الصغار إلى ألعابكم وماشية آبائكم.

وحين انصرف الأطفال تقدمت إليه الفتيات وقلن بصوت واحد:

- نلعب معا.

كتم ضحكته، وقال وهو يرمي إليهن بغصن الزيتون:

- أنا لست بنتا، لست لا ولدا، ولا بنتا، تذكروا هذا جيدا.

تعجبت الفتيات، وسمع الفتيان بالخبر فاجتمعوا أمام بيت والديه وتساءلوا بصوت واحد هامس:

- كيف لا يكون لا ولدا ولا بنتا، لا ذكرا ولا أنثى، خنثى يعني ؟

قال طفل خبيث:

- نسميه الولد البنت أو البنت الولد.

فضحكوا، فقال آخر:

- نسميه الأبله، فهو لا يعرف ما يقول.

أكد آخر:

- نسميه الأبله، فهو لا يشبهنا في شيء.

فسمي الأبله منذ ذلك اليوم الذي ولد أثناءه وتناسى الناس الاسم الذي أطلقه عليه أبوه.

***

سألت جدي محاولا أن أشجعه على الكلام:

- وكيف بدأت العلاقة بين الأبيض والأبله ؟

قال:

- لما وصل الأبيض إلى القرية وشرع في تنفيذ خطته بعد الحادث لاحظ عزوف الأبله عن المشاركة في حياة الناس خاصة الشباب، فطلب من أبيه أن يوكل أمره إليه ووعده بأن يقوم بإعادة تربيته، فقال له الأب وكأنه يتخلص من حمل ثقيل:

- هو لك، افعل به ما تشاء، ولكن هل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟

ضحك الأبيض ومر بيده اليمنى على شعر الأبله، فابتسم له الأبله. فسأله الشبان الذين يصاحبونه:

- ماذا سنفعل بهذا الأبله العاجز الحقير الجاهل ؟

أجاب:

لا تسخروا من ضعفائكم، يقول ابن السماء، فقد يكون هذا الأبله أقدر منكم وأعلم، فقديما كان الحكماء والعلماء يصلون إلى العلم أو القوة بهذه الطريقة في التأمل والعزلة، لكن الناس ينظرون إليهم على أساس أنهم مجانين.

انصرف الشبان غير مقتنعين، ودخل الأبله مع الأبيض إلى بيته، وهنا قيل أن الأبله حلت فجأة عقدة لسانه وتكلم بما ترك الأبيض عاجزا فاغرا فاه مدة طويلة، ومن جملة ما قاله في هذه الجلسة الأولى التي جمعت بينه وبين الأبيض كلامه:

- لقد تأملت وبعمق في هذه الحياة، واختبرت آلامها ومسراتها، ورأيت من عوالمها ما لم يره مسافر أو رحالة، واتصلت بخباياها بشكل لم يعرفه عالم أو منجم، وعلمت من أسرار جسدي ما يستحيل أن يدركه غيري، ولو كان هذا الغير عالم طب ونفس وبيولوجيا، وأحيانا كنت أدخل عالم هذا الجسد فأرى فيه ما أبقى له متعجبا، وأحيانا كنت أخلع بدني وأتسلل عبر خلايا هذه الحياة، فأرى ما لم يره إنسان من قبل. وقد ثبت لدي الآن بما لا يدع مجالا للشك أن الحياة ليست سعادة وسرورا وبهجة، ولا يمكن أن تكون

أبدا بهذا الشكل ما دام الإنسان لا يتحكم في جسده، وما دام هذا الجسد يطالب بأشياء لا تتوافر دائما للإنسان الذي ليس أبوه تاجرا مثلي أو تتوافر عند البعض ولا تتوافر لدى الأغلبية، فالسعادة صعبة عندما تحرم من أشياء توجد عند غيرك لأن الجسد يظل عالقا بها ولا يقبل أن يسلم لك زمام أمره وهو يفتقر إليها. في هذه الحالة ستظل الحياة مزيجا من الظلم والاضطهاد والفقر والحرمان والطمع والجشع والغش والخداع والحسد والغيرة والخبث والمكيدة والبغضاء والرياء والدم والدموع، أي جحيما حقيقيا لا يضاهيه جحيم، فالجحيم أن يظل الجسد معلقا إلى أشياء لا يمكن أن يستغني عنها ولكنها لا يمكن أن تتوافر لديه. في هذه الحالة ليس أمام الإنسان سوى خيارين:

أن يعتزلها إذا كان يجد من يوفر له قوت يومه، كأن يجد أبا عاملا أو زوجة غنية تحبه.

أن يتسلح بالناب والمخلب إذا كان لا يجد قوت يومه بنفسه أو عن طريق غيره، فيقتل الإنسان فيه ويرتدي جلد حيوان.

الحلان معا صعبان، مران، ليس الإقدام على أحدهما كالإقدام على المشوي أو البسطيلة.

غير أن الإنسان ليس هو الذي يختار في مثل هذه الأمور، أن الحياة هي التي تختار بالنيابة عنه وتفرض عليه ما تختار له.

هذا على العموم حال العامة. لكني صرت بالمجاهدة والتأمل أقوى من أهل القرية جميعا، فقد أصبحت قادرا على تحمل الجوع وتحمل الأذى وتحمل الشمس وتحمل البرد والمطر، أي على تحمل نفسي وتحمل الكون، وباختصار، تحمل الحياة، بينما الواحد منهم إذا مكث في البرد أو المطر أو تحت الشمس ساعة يمرض. وإذا جاع يصبح كالثعلب أو النسر أو الذئب أو الحمل.

لقد قضيت عاما كاملا على قمة الجبل، أعيش من نباته وحده، فاتخذت خلاله من المياه والطير والحيوان والشمس والقمر والنجوم والحشرات أساتذة أتلقى عنها أسرار الحياة، وأنا في كل هذا لا أدعي علما بقدر ما أدعي حكمة، فالعلم قد يزول، ولكن الحكمة تبقى، والحكمة تقود إلى العلم، لكن العلم لا يقود دائما إلى الحكمة، فهو في أغلب الأحيان يؤدي إلى الجنون، وقد يؤدي إلى الانتحار.

غير أن مأساتي في أني لا أستطيع أن أتحدث عن كل هذا إلى أهل القرية، فأنقل إليهم الخلاص والقوة، وأجعل منهم أهل مدينة فاضلة لم يحلم بمثلها التاريخ، فهم ما زالوا مع الأسف في مرحلة القطيع، وأنا قد ارتفعت إلى مرحلة الحكماء، وهم جميعا يشتغلون في زراعة الأرض، وأبي يشتغل بأنبل المهن وأرقاها، وهم قد فقدوا نعمة الفضول، وأنا في ذروة التمتع بهذه النعمة، وهم قد صاروا في نظري بمنزلة أحط من منزلة

الحيوان، وأنا قد ارتفعت إلى درجة الملائكة والأنبياء، لذلك لم أعد أرى ما يجمع بيننا أو يجعلنا نتشابه، فلا مناص إذن من أن أكون أنا وأن يكونوا هم، أن أدعهم لأكون أنا، وأن يدعوني ليكونوا هم، وأظن أن هذا الأمر قد تحقق فصار أمرا واقعا، وأنهم قد تحرروا مني وتحررت منهم، وأني عما قريب سأستطيع العودة إلى الجبل لأقضي هناك بقية حياتي، فوالدي قد يموت في أية لحظة وأمي تحتضر منذ أيام، ولا أستطيع أن أهرب من قدري في أن أكون على عكس هؤلاء الرعاع.

هذه خلاصة لأهم ما نطق به الأبله الذي كان الجميع يظنه أبكم ولا شك أن الأبيض قد أعجب بهذا الحديث رغم ما فيه من منطق لا يستقيم مع منطقه، ومن عزم وطموح لا يقره تكوينه ولا عقله، ومن بله يعرف كيف يستغله لأنه لا يحبه.

لقد أعجب الأبيض على الخصوص بذلك الشعور بالتفوق والتفرد عند الأبله، وبتلك الثقة بالنفس التي تشبه الجنون المرضي ولم يجدها عند أحد من أهل القرية غيره.

لقد حدس الأبيض منذ مر بيده على شعر الأبله أن هذا الشاب سيكون له شأن كبير في الحياة أو في العلم، وأيقن من خلال ما أسر إليه به الأبله أن هذا الشأن لن يتم إلا على يديه. وإن كان لم يعجبه هذا الفصل بين الحكمة والحياة من طرف الأبله لأنه من مجتمع لا يقبل مثل هذا الفصل.

على ضوء هذا الحديث وذلك الاستنتاج تبين للأبيض المنهج القويم الذي يجب أن يتبعه في إعادة تربيته للأبله. لكنه حين تكلم ليرد على حديث الأبله اكتفى بالقول:

- يجب أن تقرأ كتب الأولين وتطلع على علوم المعاصرين لتزداد حكمة، فالفرد لا يقدر وحده على اكتساب كل الحكمة ولا بد أن يستعين في ذلك بمن عرفها قبله، وأنا على استعداد لتعليمك القراءة والكتابة كي أفتح أمامك أبواب تلك الحكمة التي لم تعرفها بعد، كمقابل، تعلمني أنت بعض حكمتك. وأنا على استعداد أيضا لإطلاعك على بعض علوم المعاصرين التي تلقيتها من أساتذة كبار، وكمقابل لهذا لا أطلب منك سوى الاهتمام ببغلتي والعناية بها على قدر محبتي لها. وكن على يقين أننا سنستفيد من بعضنا وأن المجد سيكون لنا إذا تعاونا بصدق ومحبة، هل توافق ؟

قال الأبله:

- اتفقنا

سأل الأبيض:

- أبدأ أو تبدأ ؟

أجاب الأبله:

تبدأ أنت، نبدأ بالقراءة والكتابة.

منذ ذلك اليوم لم ير الأبله إلا وهو يقرأ أو يكتب أو يستمع إلى الأبيض بانتباه أو يتكلم معه بتركيز وثقة أو وهو ينظف البغلة أو يقدم إليها العلف أو يهيئ مكان نومها أو أكلها.

استغرب الناس كيف يتحول أبله بهذه السرعة من خامل إلى شعلة لا تهدأ من النشاط. ثم لاحظ الناس أنه بدأ يهتم بثيابه وينظفها وأنه صار يقوم بالرياضة كل صباح مثل الأبيض بدل جلسته تحت الشمس أو تحت المطر، وأنه أصبح يقوم بإعداد الطعام في غيبة الأبيض أو يساعده على إعداده، وأنه صار يخرج إلى الصيد وحده أو صحبة الأبيض، وأنه أصبح يزور أمه ويتكلم معها طويلا، وأنه ينزل أحيانا إلى دكان أبيه فيساعده، فلما اشتد المرض بهذا الأخير صار يدير شؤون الدكان بنفسه، فلما مات الأب ثم الأم كان قد تحول إلى رجل لا يشبه في شيء ذلك الأبله الذي عرفه الناس.

كل هذه التحولات تمت خلال أقل من ثلاث سنوات، أي قبل أن يسافر الأبيض سفره الطويل ويغيب كل تلك المدة عن القرية.

أثناء هذه المدة أنشئت الطاحونة والحمام وتعددت كوشات استخراج الفحم من الخشب وبنيت معصرة الزيتون وشيدت عدة حوانيت ظلت فارغة وغرست آلاف الأشجار الجديدة وتحول الأبله تحوله المعروف. لكن الأبيض استيقظ ذات صباح وقد اتخذ قرارا ظل يؤجله باستمرار.

قال:

- أنا مسافر لأجدد فكري ونفسي، وسيقوم الأبله نيابة عني بكل ما كنت أقوم به، ابتداء من شؤون الغابة إلى إرشاد الشباب، وإني لأرجو أن تثقوا فيه وألا تعصوا أمره، فطاعته من طاعتي، ومخالفته مخالفة لي. وركب بغلته فتبعه الأبله صامتا حتى خرج من حدود القرية.

وهنا قال الأبيض للأبله:

- كن طيبا مع هؤلاء الناس السذج، تظاهر أنك خادمهم الأمين فإن وجه القرية سيتغير بتمامه عندما أعود.

عاد الأبله إلى القرية يمسح دموعه بسرواله الذي كان قد خلعه في الطريق ليقضي حاجته تحت الشجرة، انتظر حتى حان المساء، ثم انتظر حتى انتهت السهرة ودخل الكبار مع زوجاتهم إلى بيوتهم، فجمع الشبان وقال لهم:

- أمرني سيدي الأبيض بتعيينكم للإشراف على مختلف مرافق القرية كي تزول الفوضى ويسود النظام.

وقام بتعيين أحدهم للإشراف على تسيير الطاحونة، واثنين لتسيير الحمام، وثلاثة للسهر على كوشات الفحم والغابة، وأربعة على شؤون المعصرة والبغل الذي يدير رحاها. وقال للآخرين: أما أنتم فستظلون معي كما كنتم مع الأبيض، وعندما يعود نعينكم في مناصب جديدة، هذه أوامره، كما علي

التبليغ عليكم الطاعة. امتثل الشبان لأوامر الأبيض التي لم تكن في الحقيقة إلا أوامر الأبله. وقالوا بصوت واحد:

- السمع والطاعة لسيدنا ومولانا.

فلما أفاق الناس وجدوا أن الحمام الذي كانوا يتناوبون على الإشراف عليه قد صار له مشرفان متفرغان وأن كل المرافق الأخرى التي كانوا يتناوبون على تسييرها قد عين للإشراف عليها شبان متخصصون وأقوياء، فحمدوا الله على هذه النعمة ولم يكترثوا للفرنكات القليلة التي صار عليهم أن يدفعوها مقابل القيام بتلك الأتعاب من طرف أولئك الشباب.

وهكذا قام الأبله بتقسيم المداخيل إلى ثلاثة أصناف: قسم يخصص لمصاريف التسيير، وقسم للمشرفين على التسيير، وقسم للادخار، وهذا ما سمي بحق الأبيض.

لم يصادف هذا القرار أية معارضة جدية، فقد أثنى عليه بعضهم وأحس البعض الآخر أن بعض العبء قد أزيل عن قلوبهم.

وشجع رد فعل هذا الأبله فدفعه إلى أن يفكر بجد في مشروع يتعلق بالأرض.

وقصة الأرض في المنسية قصة طريفة، فقد كانت هذه الأرض دائما ملكا جماعيا، وكان العمل بها جماعيا، والاستفادة من الإنتاج جماعية. وهو الوضع الذي جعل القرية دائما متماسكة وصلبة للدفاع عنها ضد هجمات القبائل والقرى

الأخرى الطامعة في ضمها والاستيلاء عليها وصد القراصنة الذين يأتون من البحر أو البر من أجل نهبها. كانت القرية كعائلة واحدة يشد بعضها بعضا حول تلك الأرض الخصبة التي قلت مثيلتها في البلاد.

ولكن عدة عوامل، منها ما هو داخلي ومنها ما هو خارجي، ظلت مع مرور الزمن تعمل على تغيير طبيعة الملكية في هذه القرية. لذلك صارت الأرض وقت بداية هذه الحكاية ثلاثة أجزاء: جزء كبير جدا يشكل أكثر من نصف مجموع مساحتها ويتكون من سهل جميل خصب، وجزء أصغر يتكون من هضبة وارفة تستعمل لرعي الماشية، وجزء أكبر من هذا قليلا ويتكون من الجبل الذي تكسوه الغابة الكثيفة التي تصل إلى حدود الهضبة. أما السهل فكانت كل عائلة تملك منه نصيبها الذي تفلحه بالشكل الذي تشاء. وأما الهضبة والجبل فكانا ملكيتين للجميع من أجل الرعي أو الصيد أو جلب الخشب. كانت كل عائلة تسكن بالجزء الذي تملكه من السهل بحيث تبدو القرية وسط السهل كرقعة شطرنج. غير أن الأمر لم يكن دائما على هذا النحو، كما سبق أن ذكرنا، فقد كانت الأرض، سهلها وجبلها وهضبتها ملكا جماعيا. لكنها مع ذلك لم تستقر على الحال التي وجدت عليها مع بداية هذه الحكاية إلا بعد تطورات دامت حوالي أربعين سنة أو نصف قرن.

***

من ذلك مثلا أنها قد اكتسحتها ذات يوم قوافل عديدة من الماشية انتشرت كالجراد أو النمل على مسافة عشرين كيلومتر، أي على كل مساحة القرية. وكانت هذه الماشية الجرارة المتكونة من الغنم والبقر والإبل والماعز محروسة من طرف رجال أقوياء يركبون خيولا نافرة ويحملون سيوفا وبنادق فتاكة. فلما استفسر أهل القرية عما يحدث قيل لهم أن هذه الماشية ملك لثلاثة إقطاعيين صغار يحميهم الإقطاعي الكبير المسمى الفورصة، وقيل لهم أن الفورصة يملك قصرا كبيرا وأراض شاسعة ورجالا كثيرين أقوياء لا يرحمون، وأن لا أحد كيفما كانت قوته وإرادته يمكن أن يعارض الفورصة أو يقاومه.

قالوا:

- نرفع أمرنا إلى المخزن.

وأرسلوا ثلاثة منهم يحملون رسالة يشكون فيها ظلم الإقطاعي ويطالبون بحق حمايتهم من طرف المخزن. لكن الرجال الثلاثة لم يعودوا إلى القرية بعد ذلك.

أثناء هذا ازداد المتسلطون تمركزا في الأرض، فبنوا الزرائب والإسطبلات واستولوا على منابع الماء. وانضمت ماشية القرية القليلة إلى هذه الماشية الجرارة.

أرسلوا ثلاثة رجال آخرين برسالة تظلم إلى المخزن فعاد هؤلاء ليقولوا:

- المخزن مشغول بحماية الثغور والمدن الاستراتيجية. لذلك يأمركم بأن تتحملوا مسؤولية الدفاع بأنفسكم أو تنسوا هذه القضية وأن تبعثوا ببعض رجالكم لحماية الثغور والمدن الاستراتيجية.

أرسلوا ثلاثة آخرين فعاد أحدهم يحمل رأسي صاحبيه، فلما سألوه عما حدث وجدوا لسانه مقطوعا. حينئذ قال شيخ من شيوخهم:

- والله، صرنا مثل النساء، متى اعتمدنا من قبل على المخزن ليحمينا ؟ ألم نكن نحن الذين نحميه ؟ والله تغير الرجال ! هذه القرية لم يكن يحميها طوال تاريخها إلا رجالها، والظاهر أنه لم يعد فيها رجال.

وحمل سيفه وخرج قاصدا حراس ماشية الإقطاع. فلما مد يده إلى سيفه ليخرجه من غمده أصابته نبلة أردته قتيلا.

قال شيخ آخر وهو يجر صاحبه القتيل إلى بيته:

- كيف نواجه كل هذا العدد الضخم من الحراس ؟ لا تفكروا منذ الآن في المواجهة المكشوفة.

وفي الصباح التالي وجدوا هذا الشيخ مقتولا بدوره، لكنهم وجدوا بالقرب منه ثلاثة حراس مقتولين. ففهموا ما عناه الشيخ القتيل وعرفوا أن هذه الطريقة في المجابهة قد تكون أجدى: واحد بثلاثة. وأخفوا الجثث الأربع، وفكروا في حيلة مساعدة.

قالوا:

نرسل إلى الفورصة رسولا يستفسر عن شروطه.

وعاد الرسول يقول:

- أن تتنازلوا له عن الأرض والماشية ليضم الكل إلى ملكه وتصبحوا حراسا لماشيته وخماسين في أرضه، وهو لا يضيع أجر الطائعين، ولكنه لا يرحم الرافضين لسلطانه.

إلا أنهم أثناء رحلة الرسول كانوا قد اغتالوا بالليل خمسين حارسا ودفنوهم ببيوتهم كي لا يكتشف الحراس الآخرون حيلتهم، ثم قتلوا أضعاف ذلك من الماشية، ماشيتهم وماشية الفورصة ونشروا خبرا يقول:

- الذئاب صارت تأتي من كل مكان، تأكل الماشية والرجال.

وأرسلوا ثلاثة منهم إلى مكان تكثر فيه الذئاب فاصطادوا أربعة ذئاب وحملوها على أكتافهم ليلا وتركوها غير بعيد من بيوتهم كي يكتشفها الحراس في الصباح.

ثم أرسلوا إلى الفورصة رسولا ليفاوضه، وأثناء غيابه قتلوا ثلاثين رجلا من الحراس ومثل هذا العدد من الماشية. غير أنهم فوجئوا بالرسول يعود ومعه ثماني رجلا من الحراس الإضافيين. لذلك استدعوا كبير الحراس وقالوا له:

- نقترح على صاحبك أن يترك لنا أرضنا وماشيتنا ويسحب حراسه وماشيته على أن ندفع إليه كل صيف نصف

محصول الأرض ومثله من مواليد الماشية، ونريد أن ترسل من حرسك ليعرض عليه الأمر.

قال كبير الحراس:

- تعرفون أنه سيرفض، ولكن سأبعث إليه لأعرض عليه الأمر.

وذهب الرسول ثم عاد يقول:

- سيدي يبلغكم السلام ويخصكم بالتحية والإكرام ويقول إنه هو الذي يقرر ويعطي، فلا عاطي إلا هو ولا مقرر إلا هو، فإما أن تدخلوا في طاعته وإما أن تعلنوا الحرب عليه.

لكنهم خلال غياب الحارس الرسول كانوا قد قتلوا عشرات الرؤوس من الماشية رغم أنهم لم يقتلوا هذه المرة أي حارس ونشروا جثث خمسة ذئاب. إلا أن الحرس حدسوا أن في الأمر مناورة فقرروا أن ينتقموا. وقيل أنهم قتلوا عشرين رجلا من أهل القرية وعلقوا جثثهم في الهواء الطلق وأعادوا تنظيم الحراسة، تم ذلك عند الزوال. غير أن هؤلاء الحراس رأوا مع العتمة أشباحا تقترب من الماشية فأطلقوا الرصاص فقتل خمس وعشرون رجلا من أهل القرية. ففوجئوا بأشباح عديدة أخرى تتجه نحوهم ونحو الماشية، فأطلقوا الرصاص، فلم تسقط الأشباح هذه المرة، وظلوا يطلقون الرصاص حتى نفذت ذخيرتهم، فأخرجوا سيوفهم واتجهوا نحوها، فإذا بهم يجدون دمى تتحرك، وإذا بهم يجدون نساء

يزحفن ويحركن تلك الدمى، فذعـروا وقرروا التراجع لكي لا يدنسوا سيوفهم بدم النساء. وفي هذه الأثناء خرج بقية رجال القرية من مخابئهم ففتكوا بهم ولم ينج منهم إلا من هرب، ولم يستطع الهرب منهم إلا أربعة أو خمسة امتطوا خيولهم وأطلقوا عنانها للريح.

كانت هذه ليلة عيد حملت أثناءها كل الفتيات اللائي بلغن سن الزواج وذبحت خلالها عشرات الرؤوس من ماشية الفورصة وتفتحت فيها شهية الناس للحم حتى قيل أن بعضهم كان يأكله نيئا أو قبل أن يذبح البهيمة، وقد ظل الناس يأكلون ويرقصون ويتناسلون مدة ثلاثة أيام.

زوال اليوم الثالث حلت بالقرية خيول حجب غبارها عين السماء، فلما حل المساء كانت جثث الرجال والأطفال والشبان مهيأة لتصير سمادا لأرض القرية ولكن الله أكبر، وزغاريد النساء والصلاة على النبي ملأت أرجاء السماء وأنحاء الأرض حتى رددتها كل الحيوانات والحشرات والطيور طوال عملية التقتيل. فلما سقط كل الرجال وكل الشبان وكل الأطفال تحسست النساء بطونهن وعدن إلى البيوت وهن يتهددن الحراس بالسكاكين والمدي.

آنئذ انصرف الحراس وعسكروا فوق الهضبة. فلما أقبل الصباح أطل من جهة الغابة موكب الفورصة، فجمع النساء وخطب فيهن:

- ألا إن سيفي لا يرحم، ولكني أكره رؤية الدم. وإني لجاعل من هذه الأرض إن شاء الله جنة، وأني لأوصيكن خيرا بأنفسكن، فلا تظلمن إحداكن نفسها فتستبيح دمها، وإني لمتمسك، ولا أحب أن يعصى لي أمر، لا أحب الغدر ولا أرحم من غدر، وإني لأرى من داخل قصري ما خفي منكن وما ظهر، فليكن لكن من أنفسكن على أنفسكن رقيب...

وحين أنهى خطبته الطويلة أمر بتقسيم السهل حسب عدد النساء، وأمر أن ينقل أثاث كل امرأة إلى نصيبها من السهل، وعين على كل قطعة أرض من السهل رجلا ليكون السيد والزوج، وأمر أن يتكلف كل رجل منهم بثلاثمائة رأس من الماشية ترعى نهارا مع بقية الماشية بالهضبة أو الجبل وتأوي في المساء تحت حراسته إلى الزربية التي يصنعها لها بنفسه على نصيبه من السهل.

هكذا قسم هذا السهل، هكذا انتقل من الملكية الجماعية إلى الملكية الفردية، وهكذا استبيحت أعراض نساء القرية.

فلم يمض على هذا الوضع أكثر من عشرين سنة حتى مات الفورصة وهو يقوم بعملية مماثلة بقرية أخرى، فخرج أولاده الثمانية لأخذ ثأره، فماتوا جميعا بنفس القرية، وخلا بذلك الجو لكبار حراسه.

أخذ هؤلاء يقتتلون حول من يخلفه، فلما هلكوا جميعا خلا الجو لمساعديهم، فكانوا أعقل منهم إذ بدل الاقتتال قرروا أن يقتسموا ما يمكن اقتسامه من الإرث، قالوا لبعضهم:

- الفورصة كان يريد أن يكون ملكا على البلاد مستغلا ضعف المخزن واشتغال القبائل الكبرى بحماية الثغور، لكنه خدع نفسه حين اعتقد أنه بإمكانه أن يقاوم جيش النصارى، فمات في قرية نائية، وكذلك مات أولاده، ومات كبار حراسه، أما نحن فيجب أن نكون أذكى من الجميع، لنقبل التعاون مع النصارى تجنبا لشرهم فننجو ونغنم، وليكن ذلك على أساس قسمة عادلة لأملاك الفورصة.

على هذا اتفقوا، فكان من نصيب أحدهم قرية المنسية، فلما وصل إليها وجد النساء قد هيأن كل ما يلزم لتنظيم حفل بالمناسبة. لكنهن كن قد أوحين إلى الرجال بقتله والاستيلاء على المنسية، فاغتالوا الرجال وتحول الحفل إلى مأتم قبل أن يختاروا من بينهم جماعة لتسيير شؤون المنسية.

آنئذ انتقلت النساء إلى المرحلة الثانية من مخططهن فقد أكثرن من العناية بالرجال. وحين نسيت قصة الفورصة وأعوانه بعد ثلاث سنوات من موتهم اغتالت كل امرأة من نساء المنسية الرجل الذي فرض عليها زوجا وعلى أرضها سيدا. لكن الأطفال كانوا قد صاروا رجالا. ومع هؤلاء بدأ عهد جديد من الحياة في المنسية رغم أنهم لم يروا ضرورة تغيير طبيعة الملكية المتعلقة بالسهل. وبعد حادث الاغتيال الجماعي للرجال بحوالي ثماني عشرة سنة جاء الأبيض إلى المنسية وكان من أمره ما كان.

***

كان الجهد قد بلغ مبلغه بجدي، وكان يريد علبة سجائر أخرى. لكن شراء علبة سجائر في مثل ذلك الوقت كان أمرا مستحيلا، ذلك بالإضافة إلى أن جدي قد يموت إذا استمر يحكي بهذا الشكل المركز المتتالي. لهذا حاولت أن أنقذ الموقف، فأنا أعرف أنه يتمنى أن يتوقف، ولكنه لا يطيق أن أعتقد بأنه صار ضعيفا إلى هذا الحد.

قلت:

- إني لم أسمع الكثير مما قلت، لقد تعبت، اليوم.

قال وكأنه يمسك بخشبة النجاة:

- جيل اليوم، الله يرحم أيام زمان، حين كان الشبان شبابا حقا، وكان الرجال رجالا، وكانت...إذهب لتنام يا ولدي وتعال غدا لنتابع الحكاية.

***

نمت حتى الظهر. فلما دفعت باب غرفته وجدته لا يزال نائما، مستغرقا في نوم عميق وهادئ كأنه طفل. ذهبت إلى المطبخ حيث كانت أمي، فأكلت، وطلبت منها أن تحمل الأكل إلى جدي وتوقظه بنفسها لكي تطمئن عليه، فربما يكون ميتا ونحن لا ندري. ذعرت أمي من خاطرتي ونهتني وهي تهرول من غير طعام لتوقظه، فتح عينيه وهو يقفز من الفراش فقالت الأم محاولة إخفاء ذعرها:

- صباح الخير !

وقال الجد محاولا أن يخفي فزعه:

- صباح الخير!

قلت محاولا أن أخفف من حدة الموقف:

- صباح الخير أيها الجد العظيم، هل نمت نوما هادئا ؟

نظر إلى أمي بعطف:

- كنت أحلم!

علقت أمي:

- خير إنشاء الله!

قال:

- رأيت أمك وكل الأقارب الموتى، كانوا مثل الملائكة وكانوا يحتفلون بمناسبة لم أدركها، فلما دخلت عليهم قربوني منهم وشرعوا يقبلونني، ولما اقترب الفجر زفوني عريسا وأدخلوني على امرأة شابة لم أر وجهها في البداية، فلما جلست إلى جوارها أمسكت بيدي وكشفت عن وجه كأنه البدر...

حينئذ دخلت أمك، فلما رأيتها هربت إلى غرفة أخرى. وهنا وجدت فتاة أخرى تلبس لباس العروس وتناديني. اقتربت منها. أمسكت بيدي، ولكنها لم تكشف عن وجهها، نظرت فارتبكت، وحين مددت يدي محاولا الاقتراب من الحجاب سمعت أمك تصيح:

- اكشف عن وجهها، هيا اكشف أيها الخائن ؟

وكشفت عن وجه الفتاة فوجدته من خشب متحجر، فخفت وهربت، فتبعتني، وظلت أمك تطاردني وخلفها المرأة الشابة ذات الوجه الخشبي المتحجر إلى أن أيقظتني.

علقت أمي:

- قد نفرح في عرسك، قريبا إن شاء الله!

قاطعها:

- لا تهذي، هذا هذيان، قد تبكين قريبا على فراقي.

استدركت أمي:

- الأعمار بيد الله، سأطلب من العجوز جارتنا أن تفسر هذا الحلم وأخبرك بالنتيجة.

قال جدي غاضبا:

- لا تنقلي أسرارنا إلى غيرنا.

وافقت أمي:

- كما تشاء!

وخرجت لتأتي له بالفطور

سألته:

- هل أشتري لك سجائر ؟

أشار إلى الصدرية من غير أن يقول شيئا.

وبعد حوالي ساعة كان جدي يسألني إن كنت مستعدا للإصغاء إلى بقية الحكاية، حركت رأسي بالإيجاب، فأشعل سيجارة وقال:

- وقفنا عند مشروع الأبله المتعلق بالأرض. كيف نستمر؟ آه ! لقد اعتزل الأبله الناس فجأة فلم يعد يراه أحد. ذهب إلى الجبل واعتكف على عادته القديمة حتى قال الناس:

- الأبله ليس سوى أبله، الأبله لا يمكن أن يرجى منه خير، وهاهو الأبيض يفشل في ما فشل فيه كل المصلحين قبله. لكن الأبله عاد بعد أسبوع من الاعتكاف، وأمام دهشة الجميع أعلن عن نيته في تنظيم حفل ببيته يدوم ليلة ويوما ويتحمل مصاريفه وحده.

انتهى الحفل فطلب الأبله من الناس أن ينتظروا قليلا، فانتظروا، وصعد الأبله فوق صندوق صغير وأخذ يخطب.

قال: أيها الناس، تعرفون أني أصبت أخيرا بمرض خطير لم أعرف من أين مسني في غياب سيدي الأبيض، ورغم أن هذا المرض لم يكن معديا، مبدئيا على الأقل، فإني اعتكفت بالجبل مدة أسبوع حتى زال.

أيها الناس. لقد فكرت فوجدت. أن مرضي كان سببه هذا السؤال: كيف نؤمن لأرضنا الخصب والنماء ونقضي على أوهام الطامعين فيها ؟

ولما شفاني الله تعالى من هذا الداء تبين لي أن الطمع في أرض القرية يأتي من مصدرين: الأول، عدم وجود أناس متخصصين في فنون الحرب والقتال. والثاني، وجود ملكية جماعية تتعلق بالجبل والهضبة. وهذا ما يجعلهما يبدوان كأرض خلاء لا مالك لهما، ويخلق الطمع فيهما عند الطامعين والكائدين.

أيها الناس: إن وجود فرقة متكونة من شبان أقوياء، متخصصة في فنون الحرب، متفرغة لأمنكم وسلامتكم أمر لا تحتاج ضرورته إلى برهان، وإن من مزاياه أن واجب الدفاع سيصير فرض كفاية إذ سيسقط عن الكثيرين منكم، خاصة أرباب العائلات ثم إن الدفاع عن أرضكم وأولادكم ونسائكم في هذه الحالة سيتم بشكل فعال لأنه سيقوم به أناس من ذوي الاختصاص.

أيها الناس: لن يكلفكم الأمر سوى دريهمات معدودة لا تكفي الواحد منكم لشراء بندقية أو سيف .

أيها الناس: إن تقسيم الجبل والهضبة بالعدل بينكم مسألة لا يمكن أن يشك فيها، من حيث أهميتها الدفاعية، إنسان إلا إذا كان مجنونا أو جاهلا أو غير صادق مع نفسه، ناهيكم عن أهميتها من حيث الإنتاج سيصبح حينئذ كل شبر من أرض الجبل والهضبة له مالك حقيقي، وسينتهي اتكالكم على بعضكم البعض في العمل.

أيها الناس: إنه ليس من المعقول في شيء أن يعمل بعضكم أكثر من بعض في الجبل والهضبة، وعند توزيع الربح ينال الأقل عملا مثل الأكثر عملا وإخلاصا، وأحيانا أكثر منه.

أيها الناس: إنه واقع قليل النفع في حق من لا يسلم سوى بالعمل والإخلاص شيئا أصلا. وأنا على يقين أنكم لا ترضون أن يقال عن قريتكم أنها تشجع الخاملين وترعى بهذا منطقا ضد الحياة.

أيها الناس: إنكم تدركون ولا شك أن هذا الأمر واف بمقصودهم وغير واف بمقصودكم ولا بمصلحة القرية.

ونحن نخشى أن يتكاثر عدد هؤلاء يوما بعد يوم وأن تصير في نهاية المطاف قرية من العاطلين الخاملين فيزداد فينا طمع الطامعين وتذهب ريحنا، فلا يكون لنا بعد ذلك ذكر رغم أن سمعنا يملأ التاريخ. فحذار من هؤلاء حذار ولا حذر بغير قرار فعال يسبق المصيبة ويضمن الأمان قبل فوات الأوان.

أيها الناس: لقد وجدت هذا الحل لما كنت أشكوه وما كنتم تشكون شافيا. فعزمت بإرادة الأبيض سيدي وسيدكم على تنفيذه.

ثم إني لما فرغت من هذا ابتدأت في التأمل والتفكير فعلمت أن النهر رغم تحويلنا لمجراه ما زال يسقي أراضي

الآخرين في القرى المجاورة لأننا لم نوقف مجراه، وأن هذا تفريط منا لا تقبله السماء، فماذا أنتم فاعلون ؟.

لقد تأملت وفكرت فعلمت أنهم في قديم الزمان وفي دول بعيدة عن هذا المكان يبنون أشياء يسمونها السدود، وهي عبارة عن صهاريج ضخمة يختزنون فيها مياه الأنهار، ويتصرفون فيها كما يشاؤون طول السنة.

وهكذا اهتديت إلى أن هذه القرية في حاجة إلى سد، وأن السد هو الحل الوحيد لاتقاء تقلبات الطبيعة وسنوات الجدب، ومضاعفة الإنتاج في المنسية.

ولكن كيف نبني هذا السد ؟

أيها الناس: لقد تأملت وفكرت طويلا في هذا الأمر فعلمت أن الأرض في حاجة إلى كل سواعد رجالها وأن السد أيضا في حاجة إلى كل سواعد القرية، لذلك أقترح أن يعمل الرجال، كل الرجال، بالأرض في الصباح، وأن يعملوا زوالا في السد.

أيها الناس: لقد وجدت السعداء في الأرض أربعة أصناف:

الخاملون: وهم طفيليو هذه الحياة، وهم يدعون أنه لا يعمل كثيرا سوى الحمير، وهم يزعمون أنهم أهل العلم بالحياة، وهم يذهبون إلى القول بأنهم الطائفة المصطفاة من

قبل السماء، تلك التي رضي عليها الرب، فلا هي تعمل، ولا هي تقلق، ولا هي تتعب.

وأنا أقول عن هؤلاء، إنهم السوس الذي ينخر جسد الحياة، وأنهم أهل المكر والخديعة وأصحاب القاذورات الذين ابتلوا من غير أن يستتروا رغم أنهم يزعمون أن الحياة بدونهم لا يمكن أن تكتمل، ولا يمكن حتى أن تسير. وعلى كل حال فإني وجدت مقصودهم غير مقصودي، فانصرفت عنهم بتفكيري وتأملي إلى الطائفة الثانية، وهم اللصوص والمغتصبون. فعلمت أن هؤلاء لا يختلفون إلا قليلا عن أولئك، فهم أقوياء، وأصحاب همة ونشاط، ولكنهم يصرفون قوتهم ونشاطهم في ما لا يجب وكما لا يجب، وما هم عند استكناه حقيقتهم سوى طفيليات أقوى وأرقى.

لذلك صرفت تفكيري عنهم وابتدأت أبحث في حقيقة الفرقة الثالثة التي تبدو أكثر الطوائف سعادة وترفا وجاها.

أما هؤلاء فهم الوسطاء وكبار التجار والملاك، ولا تتعجبوا إن جمعتهم في خانة واحدة، فهم جميعا وسطاء، أي سماسرة، بين من يعمل ومن لا يعمل، بين من يشتري ومن يبيع، لا يقومون بأدنى مجهود، ويكرهون من يعمل بهمة ونشاط ليكون في مرتبتهم -هؤلاء لا يختلفون عن السابقين إلا بكونهم يستفيدون أكثر، ويمتصون عرق الآخرين بشكل أفظع، وبكون بطونهم أوسع، وهم أصل المصائب والآلام

التي تصيب كل الفرق، في كل مكان وكل مستوى يوجدون، مستعدون لبيع أمهاتهم وأوطانهم ليغتنوا أكثر، هؤلاء هم صانعوا الشرور العامة، لا يسلم من أذاهم حتى الأطفال. إنهم مثل العلقة التي تمسك بالموضع الأساسي من الجسم وتظل تتغذى منه وتكبر إلى أن يفقد دمه أو يصاب بالخناق.

لذلك انصرفت بتفكيري وتأملي عن هؤلاء واتجهت بهما نحو الطائفة الرابعة.

هؤلاء هم الذين يأكلون بعرق جبينهم، يتخذون من العمل عبادة، ومن الجد والنشاط مصدر سعادة، هؤلاء هم الشذوذ في هذه الحياة رغم أنهم الأكثرية، ولكنهم سر الحياة، ومصدر حركتها واستمرارها. بدون هؤلاء لا حياة ولا حركة. صحيح أنهم يعملون ليأكل أهل الطوائف الثلاث أكثر مما يأكلون هم، ويكدون ليرتاح الآخرون.

غير أن هذا الشر، هذا الوضع الفاجع، لا يمكن أن يوضع له حد بالشكل الذي تعملون، وإنما يجب أن نقوي عندهم حوافز الإنتاج بأن نقسم بينهم الممتلكات، وبقوة للدفاع عنهم، لأنهم غير قادرين على حماية أنفسهم بأنفسهم ولأن لكل عمل رجاله.

أيها الناس: هكذا ترون أن التفكير والتأمل وتقليب الأمور يقودنا دائما إلى نفس النتيجة: إن ما حدثناكم عنه بتفصيل ، وما تفرغنا للتفكير فيه كل هذه المدة، لا يمكن أن يتم إلا

بتقسيم الهضبة والجبل بينكم قسمة عادلة وبإنشاء قوة مدربة تتولى مهام الدفاع عنكم وتكون تحت قيادة سيدنا الأبيض.

***

هكذا أقنع الأبله أهل القرية بقرار سيندمون عليه طول حياتهم، وهذا ما تنبه إليه أحد أبنائهم إذا قال لهم:

- إن الأبله يريد خرابكم، والأبيض يريد خرابكم، إنهما منافقان، إن الأبله يوهمكم بأنكم ستصيرون أقوياء، ولكن ضعفكم هو ما يريد، هو ما تختارون إذا وافقتم على هذا القرار.

ولما لم يستمع إليه أحد، قصد الشاب بيت الأبله، وهناك خاطب الأبله بحدة وقال له إنه الآن يفهم وحده، لكن العشرات منهم قد يفهمون غدا مثله، وعلى يد هؤلاء سيكون حتف الأبله.

كان الوقت ليلا، أثناء اشتداد العتمة. ابتسم الأبله. وقال للشاب:

- ليت في هذه القرية عشرات مثلك، من الآن فصاعدا يمكنك أن تعتبرني أبا أو أخا أكبر لك، وبيتي مفتوح أمامك متى شئت، عد غدا بعد أن تستريح من السهر، غدا نتحدث في القضية بعمق، وثق يا ولدي أنك ستكون من ذوي الشأن العظيم في المنسية.

خرج الشاب وهو يتمنى أن يستطيع ذات يوم تصديق كلام الأبله.غير أن نارا خفية تملأ عيني الأبله حين يتكلم ظلت تقول للشاب:

- لا تصدق، احذر أن تصدق.

واستيقظ أهل الشاب فوجدوه ميتا في مطمورة.

قالوا:

- ضربه حمار الليل فسقط في المطمورة.

وخرج الموكب لدفن جثة الشاب القتيل فكان الأبله في مقدمته، ولما عاد الموكب كان الأبله لا يزال في مقدمته يردد:

- والله لو كان حمار الليل رجلا لحاربته.

***

بعد هذا الحادث بيومين ساء حال الأبله فجأة فهيأ نفسه وصعد إلى الجبل ليعتكف به على سابق عادته.

فلما عاد بعد أقل من شهرين كان يحمل معه عشرات المشاريع والخطب.

ألقى الخطبة الأولى ليخبرهم بما اهتدى إليه من نظام ضرائبي متكامل. وألقى الخطبة الثانية في اليوم التالي وأطلعهم على مشروع قانون منظم لعمل المشرفين على تسيير المرافق العمومية الأساسية وقانون خاص بتنظيم شؤون الدفاع ومفكرة لإنجاز السد.

لكن الأبيض قد عـاد فجـأة محمولا على بغلته ترافقه امرأة شقراء لا تفارق ثغرها ابتسامة صغيرة مضيئة، فلما رأى الناس جروحه الكثيرة التي كانت لا تزال تدمي جسده سألوه عما حدث.

قال بصوت غي مسموع:

- قضاء وقدر.

نظر الناس إلى بعضهم البعض.

قال الأبله بصوت مرتفع:

- قضاء وقدر!

ردد بعض الناس:

- قضاء وقدر!

حينئذ حاول الأبيض أن يرفع صوته:

- واختبارا لهذا العبد الضعيف من طرف السماء. لقد هاجمني اللصوص، فاجأوني، فمرت هذه المرأة بالصدفة، وأنقذت حياتي، لأنها حين ظهرت فجأة لا تسترها إلا ورقة توت ظنوها جنية، فهربوا. هذه المرأة المسكينة كانت ترافق زوجها في رحلة صيد، فافترس زوجها أسد، وبقيت هي تائهة إلى أن ساقتها السماء لتنجدني.

***

ضحك جدي بخبث ثم قال:

أما الحقيقة يا ولدي فهي غير هذا، هل تصدق أن يأكل الأسد الزوج ويترك الزوجة ؟

أجبت:

- ولم لا ؟

قال:

- أبله، أنت الأبله الحقيقي. إن الأبيض حين غادر القرية إنما ذهب ليقوم بنفس العمل الذي قام به في المنسية. فلما دخل قرية الراية الجبلية بنفس الطريقة التي دخل بها إلى المنسية استمع إليه أهلوها وأكرموه. ولما انتهت مدة الضيافة، وهي كما تعلم ثلاث أيام، حملوا الأبيض ووضعوه في الفلاقة حتى أدموه. ثم رموه على ظهر بغلته وهم يقولون:

- لم تخضعنا الجيوش بحد السلاح فكيف تريد إخضاعنا بحد الكلام ؟

أخبر سادتك بما رأيت وسمعت، ولا تعد إلى هنا بعد الآن إذا كنت تريد أن تعيش بقية عمرك.

إلا أن الأبيض العنيد، بدل أن يقفل راجعا إلى المنسية، اتجه نحو قرية أخرى كانت تحتلها سرية من المشاة. وهنا أخبرهم بما رأى وعاش، فأرسل قائد السرية إلى قائد سرية أخرى، وأرسل هذا بدوره إلى قائد سرية أخرى، وكان كل

واحد منهم يطلب النجدة، فما هي إلا أيام معدودة حتى كان الأبيض يقود سريتين، ويتجه بهما نحو قرية الراية، وهنا دارت معركة بين الجيش الغازي والسكان، معركة من أفظع ما عرفه من معارك ذلك الزمان، يشارك فيها الرجال والنساء والأطفال، وقيل إن الطبيعة تدخلت فيها بدورها مساعدة بالمطر والرياح العاتية. وأدرك الأبيض أن الهزيمة باتت أمرا واقعا بعد مقتل أغلب عناصر الجيش وبعد ما أصابه من جروح بليغة أثناء المعارك. آنئذ قال للممرضة الجميلة:

- تعالي إلى المنسية !

فجاءت معه إلى القرية كما سبق أن عرفت. وأما خلفه فقد اتبع خطة أخرى في المعركة إذ أمر أصحابه بتنفيذ ما يسمى في الحرب بالأرض المحروقة. ومنذ هذا التاريخ انتهت من الزمان والمكان قرية الراية.

***

في المنسية التزم الأبيض بعدم مغادرة الفراش مدة دامت أكثر من شهر، وكانت الشقراء خلال هذه المدة لا تفارقه، تعالج جراحه، وتغسل ثيابه، وتعد طعامه، تهيئ فراشه، وتسنده ليشم الهواء مرة في الصباح وأخرى في الزوال، وتصحبه إلى المرحاض ليقضي حاجته، وظلت على هذا السلوك طوال تلك المدة، حتى شك الناس في طبيعة العلاقة التي صارت تربط بينها وبين الأبيض. لكن الأبيض لما شفي

تماما قرر أن يبني بيتا للشقراء، بعيدا عن بيته، ولم يعد يراها إلا نادرا، أي عند الضرورة القصوى، فعاد الاعتقاد في طهارة الأبيض إلى قلوب الناس من جديد.

حتى الشقراء صارت تولي كل عنايتها لأهل القرية، فأظهرت في هذا الأمر مواهب حقيقية، وتجلت هذه المواهب على الخصوص في قدرتها على القضاء على تلك الحمى الغريبة المنتشرة بين السكان وفي القضاء على عدة أمراض أخرى كانت تصيب الصغار والكبار وتزهق أرواحهم في أكثر الأحيان. وقد كانت تزرع بسمتها الصغيرة المضيئة في كل مكان. فما لبث الأهالي أن اطمأنوا إليها، وأخذ النساء على الخصوص يطلبن مساعدتها ويلتمسن نصائحها، ليس فقط فيما يتعلق بالقضايا الصحية، ولكن أيضا بشأن الطبخ ومشاكلهن مع أولادهن وأزواجهن.

مع مرور الوقت اكتسبت الشقراء ثقة الجميع، فلم يعد بينهم أحد يبخل عليها بالبذل والعطاء. وهكذا فتحت أبواب البيوت وقلوبها للشقراء، تدخل متى تشاء وتخرج متى تشاء، صارت وكأنها ملاك يحبها الصغار والكبار.

***

عاد الأبيض بعد شفائه مباشرة، وبهمة ونشاط دائبين، إلى متابعة خلق المشاريع الصغيرة التي كان قد بدأها منذ مجيئه إلى القرية، ولم يعد، من جهة أخرى، في حاجة إلى من يسنده.

وأما الأبله فقد استمر في تنفيذ مخططه ولم يبد على الأبيض منذ عاد أنه يعارض أو يختلف معه، وإنما بدا وكأنه يبارك ما يفعل ويأمر به.

وهكذا أنشأ الأبله دكانا ضخما لبيع المواد الغذائية والأعشاب النادرة والعطور، وأدخلت السجائر بأمر منه إلى القرية، وفتح ملهى عام وماخور دشنهما بنفسه صحبة الأبيض والشقراء في حفل بديع، وادعى في خطبة ألقاها بالمناسبة أنهما ضروريان لضمان التوازن النفسي والبيولوجي عند الشباب والجند، وبالتالي لأمن القرية وكرامتها، كما أنهما ضروريان للزيادة في الإنتاج، ولقد مول الأبله كل هذه المنجزات من حق الأبيض الذي كان قد تكاثر خلال هذه الفترة، كما استعان بجزء هام من المحصول الضريبي ليبني بنكا لخزن الفائض والعائدات.

والواقع أن مشروع البنك كان قد صار أمرا ملحا، فقد ارتفع بسرعة محصول الضرائب والعائدات العمومية، وصار من الضروري تشييد مخزن يجمعها ويسهر عليها.

لقد تنوعت الضرائب في البداية، لكنها اختزلت في النهاية في أربع:

١ – ضريبة الأمن الخاص برب العائلة، وتؤدى نقدا.

٢ – ضريبة أمن العائلة وتؤدة حبوبا.

٣- ضريبة أمن الماشية والأرض، وتؤدى ماشية أو دواجن.

٤- ضريبة المساهمة في منشآت الراحة واللهو وتجديد الشباب لمن يتراوح سنهم بين سبع وسبع وسبعين سنة، وتؤدة بشكل اختياري، إما تقدا أو حبوبا أو ماشية أو بالجمع بين نوعين أو الأنواع الثلاثة.

كان جزء كبير من هذه الضرائب يصرف على الجند الذي سمي منذ رجوع الأبيض بقوات الحماية العامة، في حين كان يصرف جزء آخر منه على التجهيز بمعناه العام والخاص، وأما الجزء الباقي فيحتفظ به في البنك. وهكذا صار الأبيض والأبله والشقراء سعداء، وصار الأهالي بدورهم سعداء، فالضرائب كثيرة، والمحصول جيد والمنشآت تزدهر، وقوات الحماية العامة تسهر على الأمن والنظام، وليس هناك من يستطيع أن يرفع رأسه أو يتمرد.

غير أن قوات الحماية العامة ما لبثت أن صارت مصدر قلق وانزعاج كثير من الأهالي، فهي لم تخض أية معركة دفاعا عن القرية لأن القرية لم تعرف أي خطر خارجي منذ حادث الفورصة، وهي تمنح كل ما تطلب إلى حد الدلال، غير أنها صارت مع الأسف تتعسف ضد السكان بمناسبة أو بغير مناسبة، فتستولي بالقوة على بعض رؤوس الغنم، أو تحرق قمح من تدعي أن بصره أطول من أنفه، وقد حدث مرارا

أن سكر بعض أفرادها، فعاثوا فسادا في أعراض الناس وبناتهم، وكثيرا ما كانوا يغتصبون بعض النساء أو الفتيات أو الغلمان. فلما اشتكى الناس من حماقاتهم ورفعوا أمرهم إلى الأبله قرر هذا الأخير أن يعزلهم عن السكان، فبنى لهم قلعة بالجبل صاروا لا يتركونها إلا ليلة السبت ويوم الأحد، ثم أنشا شرطة خاصة لمراقبة كميات الخمر التي يحتسونها، وأمر أن يخصص لهم يوم الأربعاء لارتياد الماخور مجانا، فقلت بعد هذا مصائبهم وحماقاتهم، وإن كانت تنشأ بينهم وبين السكان من حين لحين معارك طاحنة. لكنهم على العموم قللوا من مضايقاتهم للسكان.

يمكن القول إذن إن جميع الفئات قد انسجمت فيما بينها بالمنسية ولو انسجاما نسبيا وأن الهدوء قد ساد أرجاء المنسية بصفة عامة.

***

لما تم الانسجام وساد الهدوء بالشكل الذي سبق ذكره، فكر الأبيض في تأليه الأبله. بعبارة أوضح، لما أصبح مخطط الأبله والأبيض حقيقة واقعية وواقعا حقيقيا رأى الأبيض أن الفرصة قد حانت للشروع في المرحلة الثانية من المخطط، وكان مقررا أن تبدأ هذه المرحلة بتأليه الأبله من أجل تكريس المرحلة الأولى والانتقال فورا إلى المرحلة الثانية.

صنع الأبيض تمثالا ضخما للأبله وضع فوق رأس الجبل، وصنع تماثيل متوسطة الحجم وضعت في كل بيت ومرفق، وصنع تماثيل صغيرة من خشب تعلق في أوضاع مختلفة بالثياب أو الرأس أو العنق، فصار الأبله حاضرا في كل مكان وفي كل وقت، وأتم عمله بأن صنع مجموعة من التماثيل في شكل قوالب لصنع الخبز وأغطية أواني الطبخ ومقابض ووسائل العمل.

ثم أخرجت إلى القرية كتب صغيرة ملونة تحمل أهم تعاليم الأبله ووصاياه وخطبه.

وهكذا صار أهل المنسية يتميزون عن غيرهم من الناس بتماثيلهم الجميلة وكتابهم الملون وعبادتهم للأبله، فأصبحوا يقولون قبل النهوض من النوم:

- سبحان الأبله.

وقبل إغماض الجفن:

- سبحان الأبله.

وقبل تناول كل وجبة طعام أو الشروع في أي عمل:

- باسم الأبله وبركته.

ولا يقوم الواحد منهم بشيء أو يتخذ قرارا أو نية إلا بعد أن يستعين بذكر الأبله أو الرجوع إلى الكتاب الملون.

لقد أصبحت تقام صلاة خاصة مرة في اليوم، مباشرة بعد العودة من العمل يتلى خلالها الدعاء التالي:

- لا إله إلا الأبله، نحمده على فضائله ونشكره على نعمه، قبل خلقه لنا لم نكن سوى حيوانات ضالة في المنسية، عندما خلقنا خلق نفسه، وعندما خلق ذاته خلقنا في نفس الآن، نحن هو وهو نحن، فلندع كل شيء، ولنترك له أمر كل شيء ليظل هو نحن ونحن هو، لكنه مع ذلك سيدنا ومولانا، فتبارك الأبله، آمين. . .

بعد طقوس التألية اختفى الأبله، فلم يعد يرى أحدا، ولم يعد يراه أحد، ولا يسمح برؤيته سوى للأبيض.

لكن الأبيض والشقراء نفسيهما ما لبثا أن غابا عن الأنظار واستقرا في بيت الأبله مدعين أنهما قد نذرا نفسيهما لخدمته. في الحين عين الأبيض رئيسا لشؤون الأبله الخاصة، فعين الأبيض باسمه مشرفا عاما على الأشياء الدنيوية المتعلقة بحياة القرية وأملاكها، ولم يكن هذا المشرف سوى رئيس قوات الحماية العامة.

***

قال جدي وهو يخرج من الفراش ليجلس فوق سجادة أمام المائدة وضعت عليها أمي طعامنا:

أستطيع أن أؤكد أن هذا هو الخطأ الأكبر الذي ارتكبه الأبله والأبيض والشقراء، فأهل القرية كانوا متدينين، وكانوا يعرفون أن البشر لا يمكن أن يصيروا آلهة بهذا الشكل، ولكنهم قبلوا المسألة على أساس أنها مجرد حماقة، أي دعابة.

فلما تبين لهم أن الأمر جد وأن الأبله صار يعتقد أنه حقا إله لم يقولوا شيئا خوفا من شيء لا يمكن تسميته ووفقا لحكمة قديمة في القرية تقول:

- سلم للخاوي تنجو من العامر.

وهكذا نفذوا الأوامر بالرغم من أنهم في أعماقهم ظلوا يصلون لإلههم ولا يؤمنون إلا به، وعند الصلاة للأبله يطلبون من إلههم أن يرفع عنهم هذا الظلم.

هناك واحد فقط لم يطع الأوامر. وهذا الشخص لم يكن يؤمن بشيء، لا بإلههم القديم، ولا بإلههم الأبله الذي ادعى الألوهية.

كان الناس جميعا يشفقون عليه ويرثون لحاله، فهو لم يقم منذ ولد بأي طقس من الطقوس، ولم يقم بأي عمل، وعندما يقف بأسماله ولعابه أمام أي باب أو مكان فيه ناس يرمى إليه بالطعام والشراب وكأنه من يفعل ذلك يريد أن يتخلص من منظره.

كان الجميع يسمونه المتسول، وقد أوصى الأبله نفسه أن يطعم ويكرم وألا ينهر أينما حل.

منذ أن بدأ الأبله في تنفيذ مخططه والمتسول يقول لنفسه:

- هذه بداية الكارثة.

وقد صار يرددها أحيانا لا شعوريا بصوت عال، فيسمعه الناس، فلا يهتمون بما يقول، أو لا يدركون ما يقول. في مثل هذه الأحوال يقول المتسول لنفسه:

- اسمع أيها الحقير، يجب أن يكون لك من رأيك آراء:

رأي تقوله لنفسك، ورأي تشترك فيه أصدقاءك المقربين جدا، ورأي تقوله لهؤلاء العامة، ورأي تقوله للأبله وآذانه. وبما أنه ليس لك سوى نفسك، وبما أن الجميع يعتبرك متسولا أحمق، فلا تطلع على آرائك غير نفسك، ولا تقل لهذه إلا ما تعرف أنها لن تصبح به عدوك. رأيك الآن أن جماعة الأبله والأبيض والشقراء تقود القرية نحو كارثة محققة، ولكن أهل القرية لن يفيقوا أو يتحركوا إلا عندما تحل بهم الكارثة، فإنه آنئذ يكون الأوان قد فات، ولكن ما الذي يهمك في هذا ؟ أنت مجرد متسول، تأكل فتات الموائد، وتسمع مر الكلام، لا يطعمونك إلا لأنهم يخافون أن يصيروا مثلك، يكرهون منظرك البشع، الناس بالصدقات تؤمن مستقبلا غامضا وتدفع شرا خفيا، وأنت تستغل هذا الخوف الذي لا اسم له عند الناس.

الأمر طبيعي جدا، فلا بد أن يوجد من يقوم بمثل هذه الوظيفة، وليس ذنبك أنك أنت هذا الشخص بالصدفة.

بهذا الشكل كان يفكر المتسول عادة، لكنه أحيانا يفكر على النحو التالي:

- كيف تدعي أن الأمر لا يهمك ؟ في مثل هذه الأمور لا يمكن أن يستثنى أحد، أن يتهرب أحد، أو يدعي أن لا مصلحة له. تصور أن الكارثة قد حلت بالفعل، حينئذ سيصاب الجميع بالفاقة، فمن يطعمك في هذه الحالة ؟ من يترك لك فتات مائدته ؟ كل البيوت ستكون في حاجة إلى مثل هذا الفتات، ولن يعطوك سوى مر الكلام، بل ستضطر إلى العمل، هل تطيق أن تعمل ؟ وهؤلاء الذين يرسلون إليك ذلك المتسول الأقرع ليعـرض عليك أن تكون منهم، لتدخل التاريخ، لماذا لا تكون منهم ؟

لما يصل التفكير بالمتسول إلى هذا الحد يقول لنفسه:

- يا نفس لا يجب أن يكون من رأيك إلا واحد، ذلك الذي يقود إلى مصلحتك، ذلك الذي تحتفظين به لهذا السبب لنفسك، ولكن الأبله لا يعطيك شيئا، الناس هم الذين يعطون، والناس في هذه القرية يتحولون تدريجيا من مالكين إلى عمال، ومن سادة إلى عبيد في ظل هذا الأبله المعتوه، وإذا ما تم هذا فإنهم سيصبحون جميعا متسولين مثلك، وهذه المهنة لا تطيق أن يكون عدد متعاطيها كبيرا، وأما الأبله المعتوه فإنه لا يعطي، وإنما يأخذ.

***

بعد يوم وليلة من الكلام، وقف جدي يقطع الغرفة جيئة وذهابا مادا يده مبسوطة تاركا لعابه يسيل من جانبي فمه

وكأنه ذلك المتسول الذي كان يتحدث عنه قبل قليل. أخذت أضحك.

قال:

- لقد حدث بالفعل ما توقعه المتسول.

تساءلت:

- كيف ؟ كيف حدث ؟ (لما لاحظت أنه سكت طويلا)

تابع:

- الحكاية، بل بقية الحكاية باختصار، أن الديون تراكمت على السكان، فالمصاريف متعددة والضرائب مرتفعة وأثمان المعيشة تقفز بسرعة جنونية، والأرض صغيرة، والماشية قليلة، والعمل لم يعد كافيا لا لسد نفقات العيش ولا لتسديد الضرائب، وقوات الحماية العامة لا تترك أحدا يتكلم أو يتحرك، والإله الأبله لم يعد يسمع ولا يرى، الويل لمن اشتكى أو انتقد أو نصح، مثل هؤلاء الذين تعبوا من التحكم في أفواههم يعتبرون ملحدين أو عملاء أو مخبرين أو مغامرين في خدمة الشيطان، لم يكن الشيطان في عرف قوات العامة سوى تعبير عن أعداء لا يرون أما إذا لم تدفع الضريبة أو إذا ناقشت ثمن شيء من الأشياء فإنك تعتبر متمردا وخارجا عن القانون ومهددا للأمن العام.

لما ضاقت الحال بالناس وسدت الآفاق أمامهم أخذ بعضهم يفكر في الهجرة. ولقد استطاع بعضهم أن يخرج هاربا متسللا بالليل مع زوجته وأولاده تاركا أرضه وبيته وماشيته. غير أن أغلبية الذين حاولوا أن يهربوا ضبطتهم قوات الحماية العامة وأعدموا في الحال بتهمة الخيانة الوطنية.

طبعا، لم تتوقف مع ذلك الهجرة، أو على الأصح، محاولات الهجرة، لكن الذين نجحوا في هذه العملية هم عادة من أولئك الذين تخلوا عن أولادهم وزوجاتهم بتركهم في القرية عرضة للاستنطاق والتعذيب من طرف قوات الحماية العامة، والواقع أن أغلب هؤلاء الهاربين لم ينجحوا في محاولاتهم إلا بعد أن جرحوا جروحا عديدة.

لقد سميت هذه الفترة بحالة الاستثناء أو الطوارئ إذ أخذت قوات الحماية العامة تعمل ليل نهار، وأصدر الأبيض قرارا يقضي بمنع الهجرة ويعتبر كل من يحاول الهجرة خائنا للمصلحة الوطنية ويأمر في ذلك القرار رئيس الشؤون العامة بتجريده فورا من أملاكه وعزله عن زوجته وأولاده وإعدامه بلا محاكمة. وبعد ستة شهور من تطبيق حالة الاستثناء أصدر الأبيض قرارا يعلن فيه دخول القرية بالفعل في حالة الاستثناء، غير أنها كانت حالة استثناء غريبة تلك التي أعلنت القرار إذ حددت خلالها وجبات الأكل في وجبة واحدة كل يوم، وحددت فيها مضاجعة النساء بمرة واحدة في الشهر،

ومنع استعمال الفحم والخشب في غير المرافق العمومية، ومنع الكلام منعا تاما واستبدل بالإشارات بالإضافة إلى اعتبار الحمل مؤامرة يعاقب عليها القانون بالإعدام، ومنع استعمال الماء في البيوت منعا مطلقا والسماح بتقديمه للشرب في الملهى والماخور وحدهما. مقابل كل هذا أعلنت الزيادة في الضرائب، ورفع من أسعار استعمال المرافق العمومية والمواد الغذائية كي يرتفع مخزون البنك الذي سمي منذ هذا العهد ببيت رأسمال القرية من أجل إنقاذها من الفاقة.

أما الأراضي التي هاجر أصحابها فقد صدر بشأنها قرار أبيضي يقضي بجعلها أراض في ملكية إدارة الشؤون الدنيوية.

***

عاشت القرية على هذه الحال قرابة عام ونصف، وصارت أغلب الأراضي في ملكية إدارة الشؤون الدنيوية، وكثرت الوفيات بين الرجال والأطفال والنساء، وبدا أن عدد أهلها قد تقلص إلى حوالي الثلث، آنئذ صدر قرار جديد علل بضرورة المحافظة على البيئة البشرية في القرية وأعلن بموجبه أن وجبات الأكل قد أصبحت مرتين في اليوم، واحدة في الصباح وأخرى في المساء، وأن مضاجعة النساء قد صارت مرة كل خمسة عشرة يوما، وأن الحمل لم يعد جريمة، وأن المرأة التي تلد ولدا تنال جائزة من إدارة الشؤون الدنيوية، ولكن المحرمات الأخرى تظل على ما كانت عليه إلى إشعار آخر.

وبعد مضي شهر من صدور هذا القرار صدر قرار جديد عن إدارة الشؤون الدنيوية أعلن فيه أن إدارة الشؤون الدنيوية رغبة منها في تنشيط الاقتصاد وغيرة منها على البيئة الطبيعية قررت أن تشتري كل الأراضي التي يلتزم أصحابها بالعمل فيها لمصلحة الإدارة بموجب عقد مدته عشر سنوات.

وهكذا باع الأهل أراضيهم بالتدريج لإدارة الشؤون الدنيوية وصاروا مجرد عمال يتقاضون مقابل بيع عضلاتهم خمس ما كانت تنتجه أرضهم، صاروا خماسين بعد أن كانوا مالكين حقيقيين. وهكذا تم تنفيذ المرحلة الثانية من مخطط جماعة الأبله بدقة، وكان لهم ما أرادوا: أن يصيروا مالكين وحدهم وأن يصير جميع الأهالي خماسين

قال المتسول لما رأى نبوءته تتحقق:

***

- ألم أقل لكم إن الكارثة ستحل بكم ؟ ولكن يا نفس هل كان من الضروري أن يكون لك من رأيك من رأي واحد تحتفظين به لنفسك ؟

***

عاد جدي إلى السرير، دخل تحت الغطاء، وقال:

خرج المتسول من القرية، من غير أن يهتم به أحد، ولم يعد إليها منذ هذا العهد.

سألته:

- ولماذا اختفى ؟

أجاب:

- ليس هذا هو المهم، المهم أن أراضي القرية صارت تتعرض من حين لحين لحرائق مهولة، وقد حدثت اغتيالات كثيرة بين أفراد قوات الحماية، كما تمت عمليات سطو على الماشية والحبوب.

سألته:

- المتسول ؟

قال:

- المتسول وآخرون، أولئك الذين تمكنوا من الهجرة، وحتى بعض الذين ظلوا في القرية.

تساءلت:

- المقاومة الوطنية ؟

لم يجب.

استدركت:

- والأبله ؟

قال:

- الأبله تزوج بالشقراء ورزق منها بولدين وبنت وبالمشاكل.

- والأبيض ؟

- تخلى عن مهامه لرئيس قوات الحماية العامة، ثم أخذ نصيبه من الغنيمة وعاد إلى بلده حيث ظل يعيش حياة مترفة إلى أن توفي في حادث سيارة وترك ماله لجمعية خيرية.

- والمتسول، لماذا لم يعد كما قالت جدتي ؟

- تعدني بأن تكون رجلا، في مستوى السر الذي سأخبرك به ؟

- أعدك.

- كنت أنا ذلك المتسول، جدك هو المتسول في هذه الحكاية.

فوجئت:

- كيف ؟ لا أفهم !

- كن رجلا وإلا أمسكت عن الكلام.

كنت ممتلئا بالفخر والإعجاب وعدم التصديق، لكني تركته مع ذلك يتابع:

- لقد خرجت من القرية كما علمت، كنت في الخامسة والثلاثين، وفي هذه المدينة حيث ولدت أنت وولد أبوك قبلك التقيت ببعض أولئك الذين تمكنوا من الهجرة إلى خارج المنسية. عرضوا علي أن أشارك معهم في المقاومة ضد الأبله والأبيض على أن يلتزموا بإيجاد شغل لي. كان من

الصعب علي أن أتعود على الشغل. فتحوا لي دكانا صغيرا لبيع الأعشاب وإخفاء السلاح. تزوجت ببنت أحد هؤلاء فكانت جدتك وكان أبوك وكنت أنت.

قلت:

- ولكن جدتي. .

قاطعني:

- أعرف، جدتك سمعت بالحكاية ولم تعشها، وما قلت لها قط أني كنت ذاك المتسول، كانت ستسخر مني فأنا دائما في نظرها رجل لا يصلح لشيء. النساء... ثم أن الحكاية تناقلتها عدة أفواه، ولما انتقلت من لسان إلى لسان صارت مثل الخرافة ودخلت التغيير والتحوير حتى فقدت علاقتها بالواقع أو كادت.

قلت:

- وماذا بعد هذا ؟

- قال:

- لم يختلف الأمر في تطور هذه الحكاية الخاصة بالمنسية عن تطور حكايات أخرى مماثلة لها وكثيرة حدثت في قرى أخرى.

قلت:

- أريد أن تحكي لي البقية بتفصيل.

قال:

- عد غدا

رجوته.

قال:

- عد غدا

أغريته.

قال:

- عد غدا.

هددته بإفشاء أسراره ومغامراته الأخيرة منذ أن صار يبيع مواد الزينة.

قال:

- عد غدا، قلت لك.

خرجت وأنا أتساءل إن كان حقا هو المتسول أم أنه ككثير من الخاملين والوصوليين في تاريخنا الحديث يحاول بدوره أن يزور التاريخ ليستفيد منه في كسب بعض الامتيازات. لكن طبيعة الحكاية كما رواها شغلتني أكثر فيما بعد: هل هي حقا كما رواها ؟ هل هذه بالفعل هي حكاية الأبله والمنسية أم أن لجدتي حكايتها ولجدي حكايته وللناس أيضا حكايتهم عن الأبله والمنسية ؟

سألت أمي:

- هل تعرفين حكاية المنسية ؟ هل تعرفين متسول المنسية؟
نهرتني، ثم اعتذرت بأنها لم تذهب إلى المدرسة مثلي.
قلت:
- هذه الحكاية، مثل هذه الحكاية، لا نتعلمها في المدارس.
قالت لتتخلص مني:
- إسأل أباك.
وسألت أبي عن هذه الأمور.
قال:
- ليس لدي الوقت لإضاعته في مثل هذه التوافه.
لم يبق لي سوى جدي.
عدت إليه مع الصباح الباكر متعللا بحمل طعام الفطور إليه. كان لا يزال يغط في نومه. ناديته. لم يجب. حركته. لم يفتح عينيه. اقتربت من وجهه.
كان كورقة دفتر بيضاء. ناديت على أمي. اقتربت منه. ذعرت.
وصاحت:
- مات !
شغلتني مسألة الموت من جديد:

- لماذا يموت الناس بهذا الشكل بعد حكاية، مجرد حكاية صغيرة كهذه؟ لماذا يموت رواة هذه الحكاية ؟ استدركت حين انتهيت إلى صيغة التعميم:

- حكت جدتي حكاية المنسية والأبله، وماتت، وحكى جدي حكاية الأبله والمنسية، فمات، هل يموت كل من يحكي هذه الحكاية ؟ هل أموت بعد أن أحكي هذه الحكاية ؟

كل شيء ممكن.

قبل ذلك أشهد:

- أني لم أضف كلمة واحدة من عندي إلى ما قاله الجد في الحكاية، على عكس مما فعلت مع حكاية الجدة لكي تستقيم!

●

الكتاب الثالث

الأين.... ؟

توجد القرية المسماة بالمنسية على بعد تسعين كلمترا من العاصمة.

لقد تغير اسمها من فترة إلى أخرى، فهي مرة دار الأبله، ومرة دار الأبيض، ومرة دار الشقراء، ومرة دار ولد الشقراء أو ولد الأبله.

غير أن اسم المنسية هو الاسم الذي عرفت به أكثر من غيره من الأسماء الأخرى، وحتى عندما تذكر باسم من تلك الأسماء العديدة فإنه لا ينطق عادة إلا مقرونا بلفظ المنسية، فيقال مثلا: دار الأبله المنسية، أو دار الشقراء المنسية، أو دار الأبيض المنسية.

المنسية اليوم عبارة عن شارع طوله نصف كلمتر تقريبا، تحيط به البيوت والحوانيت والمقاهي من الجهتين وتتوسطه بعض الأشجار الصغيرة وبعض العربات تدفع باليدين.

أول ما يثير الانتباه والإنسان يطل على المنسية هو المقبرة، فهي خمس مرات أكبر من المساحة التي يحتلها الشارع بدوره وأشجاره وحوانيته. إن المرء ليشعر وهو يشاهد هذه المفارقة كأن القرية قد أصيبت في زمن ما بزلزال عنيف مدمر أو مرض عضال أزالها من الوجود دفعة واحدة ثم أعيد بناؤها بهذا الشكل الذي اقتضاه موقعها من حيث أنها تقع مباشرة قبل مفترق طرق عديدة تؤدي إلى كل الجهات.

والغريب أن أهل المنسية يبدون وكأنهم يشتغلون جميعا في هذا النوع من التجارة الذي يتلاءم مع طبيعة القرى والمدن التي توجد في مثل هذا الموقع: مقاه متعددة ودكاكين جزارة كثيرة ومحلات لبيع اللحم المشوي والبيض وأكلات أخرى خفيفة، وأطفال حاضرون في كل مكان من الشارع ومستعدون للقيام بأي شيء يكسبون منه بعض المال: حمالون، بائعو سجائر وسندويتشات، وماسحو أحذية، وملمعو سيارات أو حراس لها، ومساعدون في المقاهي والدكاكين، وفي كل شيء آخر، أي حتى وسطاء بين الرجال والنساء. هل أخلص من هذا إلى أن مخطط الأبله قد بلغ ذروته، إلى أكثر مما كان ينتظر منه الأبله نفسه ؟

يبدو أني نسيت حكاية هذا الرجل الذي شغلتني أخباره مدة طويلة. والواقع أن لا شيء في المنسية يذكرك بالأبله أو بجو الحكاية لا كما روتها جدتي ولا كما رواها جدي. فقد

سألت عن قصر الأبله فدلني الناس على أطلال لم أستطع أن أصدق أنها بقايا قصر.

وسألت عن قصر الأبيض فأشاروا إلى بقعة صغيرة من الصبار مدعين أنها قصر الأبيض. وسألت عن السد فأرشدوني إلى حفرة عميقة وواسعة ما زال بها بعض الماء، ولكنها صارت مأوى للضفادع والأعشاب الطفيلية، ولما سألت عن الغابة أخبروني بأنه لا توجد غابة بالمنسية.

تدخل شيخ وصحح:

- أزيلت من الوجود منذ خمس سنوات.

سألت عن هذا الذي يسمونه ولد الأبله ويسمون القرية باسمه.

قال أحدهم:

- لعنة الله عليه، كان سكيرا، ثم صار متسولا، ثم قتل أمه وأخته وأخاه وهرب إلى الخارج، لم يعد منذئذ إلى المنسية.

سألتهم عمن يملك الهضبة والجبل والسهل، من يملك الأرض. قال طفل:

- ولد الحمراء. رجل اسمه ولد الحمراء نسمع به ولا نراه...

لا نتعامل معه إلا بواسطة سمسار يتوسط بين السكان وبينه لشراء أرض للسكن مثلا أو لكراء بقعة ترعى بها ماشية الجزارين.

وسألته:

- لماذا لا يحرث الأرض ؟

أجاب الطفل:

- لا نعرف، إنه لم يحرثها منذ اشتراها. اشتراها غير محروثة وما زالت كما اشتراها من ولد الأبله. وعلى كل حال، فإنه حتى لو أراد أن يحرثها، لن يجد العمال لأن الناس لم يعودوا يحبون أن يشتغلوا بالفلاحة لأسباب كثيرة.

علقت:

- ربما كان منها ما هو موروث !

تدخل العجوز:

- لا ندري، ولكن الأسباب كثيرة، ربما كان منها ما هو موروث.

***

كانت الجماعة التي ترافقني تتكون من ثلاثة أطفال يبدون أصحاب تجربة كبيرة وتعسة، شاب في حوالي الخامسة والعشرين ورجل يبدو فاقدا نصف عقله، وشيخ يتكلم إلا قليلا وبحذر.

ونحن عائدون من زيارة الأطلال أعطيتهم عشرين درهما ودعوتهم إلى تناول الشاي في إحدى المقاهي. كانوا في غاية السعادة، لكنهم ما لبثوا أن بدأوا يتخاصمون حول المبلغ

الذي يجب أن يعود إلى كل واحد منهم. تدخلت وحسمت الموقف.

في المقهى أخبرتهم بأن جدي من المنسية وأنني بالتالي ابن شرعي للمنسية. فرحوا كثيرا لما سمعوا الخبر وطلبوا مني أن أحدثهم عن العائلة التي أنتمي إليها. هل أخبرهم بقصة المتسول ؟

- خرج جدي من القرية منذ زمان طويل، ولا أظنكم تعرفون شيئا عن هذا الزمان، وربما كان من الأحسن أن لا تعرفوا عنه شيئا، فهو قد صار معلقا بين الواقع والأسطورة والكابوس.

أمسكوا عن السؤال. ثم دلني الشيخ على النزل الوحيد الموجود في القرية: نزل الراحة. منزل في الأصل، فحول إلى أوتيل لما اشتراه رجل يعمل بالخارج وكلف أخته العانس بتدبيره.

كنت متعبا وأحس بخيبة أمل كبيرة. لكن البق والبرغوت والصراصير كانت لي بالمرصاد في الغرفة. بعد مقاومة طويلة لأعصابي استطعت أن أنام.

لما استيقظت في الصباح على ضجيج منبهات الحافلات والسيارات وجدت جسمي مزركشا من آثار العض. خرجت إلى المقهى التي سبق لي أن تناولت بها الشاي مع

الجماعة. تناولت الفطور. أشعلت سيجارة. جاء طفل من الجماعة. قال:

- صباح الخير!

جلس. طلب قهوة بالحليب وخبزا محشوا بالزبدة. سألته عن المستشفى. كاد يشرق من الضحك والقهوة. قال:

- المستشفى؟ هل تظن نفسك في المدينة ؟

قلت:

- وهل تظن أن في المدينة مستشفيات تستحق هذا الاسم؟ في البلدان المتخلفة، كل شيء متخلف، ولا تختلف المدن عن القرى إلا بالعيادات الخصوصية، أي الخاصة بالأغنياء.

بدا وكأنه لم يفهم. قال:

- أنا رأيت مستشفى في المدينة!

قلت:

- من الداخل أم من الخارج ؟

لم يجب

قلت:

- هل تدلني على المستشفى ؟

قال:

- حالا (وهو يضحك)

ثم أضاف ونحن في الطريق:

- سيعطيك حبات من الاسبرين أو الجبص أو يحقن جسدك بالماء موهما حضرتك بأنه مضاد حيوي، كل شيء يعالجونه بتلك الحبات البيض وبالماء.

قلت:

- وكيف تستطيع أنت أن تفرق بين الدواء وهذه . . . ؟

قال:

- أنا أيضا ذهبت إلى المدرسة مثلك. وكانت تعلمنا فرنسية شقراء تعرف هذه الأشياء. هل تعرف ؟

- ماذا ؟

- لقد خرجت من المتوسط الثاني، القسم الخامس. لكن الذنب ذنبي، كررت جميع الأقسام فطردت. إنما ثق أني كنت بطلا حطم كل الأرقام القياسية، لقد انتقلت إلى كل الأقسام بالأقدمية.

لم أضحك. وتابع وهو يضحك:

- هل تعرف ؟ أنا كنت أريد أن أدرس بجد، وكنت أريد أن أصير موظفا محترما، لكني كنت أسكن مع والدي في المنسية القديمة. . .

- أين ؟

- في المنسية القديمة!

- أين توجد ؟

- على بعد خمس كلمترات من هنا.

- قلت لنفسي: إذن مازال هناك أمل في معرفة المنسية.

وقلت للطفل:

- نزورها في الزوال.

اعترض:

- لا يمكن

- لماذا ؟

- ممنوع

- لماذا ؟

- لست أدري. يقولون أن هناك مرضا خطيرا.

- ومع ذلك نذهب إليها في الزوال.

- كما تشاء.

وتابع:

- الذين يرونني لأول مرة يحتقرونني، أنا مثقف. . . .

وظل يحكي لي عن الدراسة إلى أن سمعته يقول:

- انظر، هذا هو المستوصف.

رأيت رجلا يلبس وزرة ملطخة بالدم والأصباغ يلعب الورق مع رجلين وتحت الطاولة الصغيرة التي يلعبان فوقها الورق زجاجة خمر رخيص. تمعنت في البناية. غرفة واحدة متوسطة الحجم مبنية من خشب متآكلة لا يشك أحد في أنها

من مخلفات المنسية القديمة. وربما نقلت منها إلى هذا المكان للضرورة. فوق باب البناية المشرع راية بيضاء رسم عليها هلال تحته صليب لم يبق منه إلا النصف. غير بعيد من الباب، ولكن بعيدا عن الرجل ذي الوزرة البيضاء وصاحبيه، حمار وأثاث ورجال ثلاثة وامرأتان وخمسة أطفال من البدو يتحدثون بأصوات عالية عن ذئب يغير باستمرار على بيوتهم. غير بعيد من هؤلاء توجد ثلاث دجاجات وديك ربطت بخيوط غليظة إلى البردعة التي فوق ظهر الأتان.

قال الطفل:

- هذا هو الممرض المسؤول عن المستوصف!

وأشار إلى الرجل ذي الوزرة البيضاء. اقتربت من هذا الأخير:

- هل . . . . ؟

أجاب من غير أن يرفع بصره:

- انتظر دورك.

قلت:

- لكن. . . . ؟

رفع بصره غاضبا، ثم غير فجأة، لست أدري لماذا، من حدة قسمات وجهه:

- نعم ؟

قلت وأنا أحاول تهدئة حدة صوتي:

- انظر !

وكشفت على آثار العض في ساقي وصدري.

قال:

- تحتاج إلى دواء، والدواء لا يوجد عندي. انظر إلى هؤلاء -وأشار إلى البدو- إنهم جميعا ينتظرون الدواء، لم يرسلوا إلينا الدواء منذ أسبوع، ربما كانت السيارة معطلة، ماذا تريد مني إذن، أصنعه بنفسي ؟ أجيء به من جهنم ؟

- صف لي دواء أشتره من الصيدلية.

- الصيدلية ؟

وقبل أن يضحك كان صاحباه يضحكان. التفت إلى الطفل. كان يضحك بدوره:

- نعم أشتريه من الصيدلية، هل قلت نكتة ؟

قال لصاحبيه:

- هل سمعتم ؟ هذا الرجل يتحدث عن الصيدلية.

ظلوا يضحكون. لكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى لعب الورق وتجاهلوني.

كنت أتميز غيضا. أمسك الطفل بذراعي وجرني بعيدا.

قال:

- لا توجد أية صيدلية بالمنسية، أقرب صيدلية توجد بمدينة الراية، على بعد سبعين كلمترا.

استغربت:

- الراية ؟ قلت: مدينة الراية ؟

أجاب:

- أجل. مدينة الراية. أنت تستغرب كل شيء. ما بك ؟

لا شيء.

لم أستطع أن أتصور قرية الراية كما جاءت في الحكاية. وبعد عملية الأرض المحروقة، تصير مدينة، مدينة توجد فيها صيدلية. ربما كانت مدينة غير تلك القرية التي تحدثت عنها الحكاية.

قال الطفل:

- كانت الراية في البداية أصغر من المنسية. لكن المعمرين جعلوا منها مدينة أما المنسية....

ولم يكمل إذ أشار فجأة إلى بيت عتيق من طابقين.

وقال:

- أنظر هذه المدرسة، هناك تعلمت.

كان أطفال كثيرون يلعبون أمام البناية، وكان بالباب معلم في حالة اكتئاب يدخن سيجارة.

قال الطفل:

- انظر، هذا هو معلم العربية، إنه هنا منذ أن حول هذا البيت إلى مدرسة، منذ أكثر من عشرين عاما. منذ عشرين عاما وهذا الرجل يعمل بالمدرسة صباحا ويشتغل زوالا بمقهى. إنه تحفة، له زوجتان وخمسة عشر ولدا، الغريب أن أي واحد منهم، من أولاده، لم يحصل حتى على الشهادة الابتدائية، ألا يقولون إن الجزار يتعشى بالعظام ؟

استمر مرافقي يتحدث عن المدرسة، وعن ذكريات أيام الدراسة، استمر يحكي عن أولئك الذين أسعفهم الحظ فصاروا معلمين أو دركيين أو شرطيين أو كتاب إدارات بمدن متفرقة، وعن بعض أولئك الذين حصلوا على منح وسافروا يتابعون دراستهم بمدينة الراية، فبدا من خلال حديثه وكأنه يأسف مرة ويرثي مرة و يشتم مرة ويغبط مرة. ورغم أني مللت حديثه عن المدرسة وتشاغلت بآثار العض فإنه استمر يحكي كمسجلة:

- هل تدري ؟ كان لي صديق من المنسية القديمة يسكن في حانوت صغيرة مع أربعة من زملائه أولاد المنسية القديمة. كنا نجتمع في الحانوت كل ليلة لنلعب الورق أو الداما أو نحكي عن أشياء كثيرة أو ننتظر أن يصير جاهزا للأكل ما نسرقه من المقاهي أو الحوانيت أو الدور، كان يريد أن يصير دركيا، لكنه تغيب فجأة عن المدرسة هو وأصدقاؤه، وبعد أيام أخذت تتسرب من الحانون رائحة نتنة، فلما فتحناه

وجدناهم قد ماتوا لقد نسوا أن يطفئوا جمر الفحم الذي كانوا يستدفئون به أثناء ليالي الشتاء الباردة.

لقد بكيت، لأول مرة في حياتي أبكي. أقول لك الصدق: أنا لم أكن أفهم لماذا يصر بعض أولاد المنسية القديمة وهم جميعا فقراء على المجيء إلى المدرسة ليتعلموا. لقد كانوا ثلاثة أنواع نوع مثل صديقي رحمه الله يكتري حانوتا مع بعض أصدقائه ليستقر قريبا من المدرسة. ونوع يعيش مع بعض الأسر الفقيرة مقابل مساعدة بسيطة. ونوع ينتقل بين المنسية الجديدة والمنسية القديمة قاطعا كل يوم عشرة كلمترات. أغلب أصدقائي كانوا من النوع الأول أو من النوع الثالث. عند النوع الأول كنت أجد مكانا أقضي فيه الليل، وعند النوع الثالث كنت أجد زجاجات الشاي البارد وخبز الشعير. هؤلاء البدو طيبون وطموحون، لكن الواحد منهم رغم محاولاته أن يجتهد ويكد يجد نفسه مضطرا إلى التخلي عن الدراسة أو تكرار الأقسام وإذا استمر متحديا كل ظروفه فإنه يطرد عندما يصل إلى الشهادة الابتدائية أو يقترب منها هؤلاء جميعا لم ينجح منهم في الشهادة إلا أربعة أو خمسة صاروا كلهم رجال درك.

لم أكن أستمع إلا بأذن واحدة لما يقوله مرافقي. كنت متوتر الأعصاب، وكان يضاعف من توتري بحديثه عن هؤلاء البدو بشكل يجعله يبدو وكأنه يرافع في محكمة. حاولت أن أوقفه:

- اسمع يا حبيبي، ليكن في علمك أني لست رئيس جمعية خيرية، ولست وزيرا للتربية، ولست مدير جريدة في المعارضة. هذه الأشياء لا تهمني لا من قريب ولا من بعيد. هل فهمت ؟

لم يقل شيئا. حاولت أن أخفف من تأثير كلامي الجارح لكرامته:

- أرجو أن تفهم أني متعب وأن أعصابي مشتعلة، ثم أنه يجب أن نستريح قليلا لكي نزور المنسية القديمة هذا الزوال. نلتقي هنا في الثانية زوالا.

انتظرت أن يقول شيئا. لكنه هز كتفيه وانصرف.

أنا لم آت إلى المنسية لأسمع منه ما سمعت ولا لأرى ما رأيت. لقد جئت إلى المنسية بهدف محدد. لقد كان أحد أساتذتي يتحدث لنا عن الأبله بإعجاب كبير معتبرا إياه من أقطاب الوطنية والتحرير. وعندما طلب منا أن نقرأ عنه ونبحث في التاريخ لمعرفة تراثنا ذهبت إلى ما يوجد من كتب تاريخنا أسائلها عن الأبله، لكن علماء التاريخ لم يعطوني جوابا وافيا. أعطوني أجوبة متضاربة لا يمكن الجمع بينها. لذلك التجأت إلى الذاكرة الشعبية التي يقولون عنها إنها تختزن التاريخ الحقيقي. حكت لي جدتي ما حكت. وحكى لي جدي ما حكى. لكن أين الحكاية اليقين ؟ أين توجد الحكاية اليقين؟ يستحيل أن توجد حكاية يقين!

هكذا حسمت الأمر مع نفسي وقررت أن أضع حدا لهذا الفضول الطارئ، فماذا يفيدني أن أقول كلمة في قسم عن هذا الأبله ليقول لي الأستاذ في النهاية:

- أحسنت!

هذه « الأحسنت » التي يقولها للجميع ؟

حتى ما زعمه جدي من أنه المتسول وأننا من المنسية لم يثر فضولي بالقدر الذي يدفعني إلى الرحيل إلى المنسية من أجل التعرف على أصلي.

السبب الحقيق في مجيئي إلى المنسية يرجع إلى أن فتاة التقطت اسمي من ركن التعارف في جريدة ولما بعثت إلي أول رسالة كتبت تقول إنها تحب جمع الطوابع البريدية والأحجار النادرة والرحلات والقصص الغرامية وتبادل الأفكار والصور الشخصية وأنها تسكن بقرية تاريخية تعتز بها هي قرية المنسية. ثم أمضت رسالتها وكتبت تحت الإمضاء عنوانها: رقم خمسة، شارع الأبله، المنسية.

هذا كل ما في الأمر. كتبت إليها ردا فأرسلت رسالة أخرى رفقة صورتها وطلبت مني أن أبعث إليها بصورتي. كانت جميلة بشعرها الطويل وبشرتها التي تشبه لون العسل. لما توصلت بجوابي وصورتي كتبت ملاحظة في آخر الصفحة تقول: هل تعرف أنك جميل؟ ولما أجبت كتبت ملاحظة بأسفل الصفحة: وأنت أجمل امرأة في الدنيا، تبادلنا العديد

من الرسائل والأفكار والصور. وذات يوم وجدتني أكتب إليها: أنا الآن على يقين من أنني أحبك، هل يمكن أن نلتقي وأين ؟

تعال إلى المنسية رقم خمسة، شارع الأبله.

جئت إلى المنسية أبحث عن شارع الأبله فلم أجده. قلت لنفسي عندئذ:

- أبحث عن رقم خمسة وأطرق الباب.

وبالفعل وجدت بابا يحمل رقم خمسة. طرقته. أطلت امرأة عجوز في فمها سيجارة، ثم نزلت وفتحت الباب وأدخلتني بعد أن سلمت علي بحرارة وكأنها تعرفني منذ زمان. تبعتها إلى بيت مظلم قليلا، ففوجئت بوجود سبع فتيات يبدو أنهن لسن جميعا من المنسية.

قالت العجوز مشيرة إليهن:- هذا كل ما عندنا من بضاعة اليوم، الجمال مقبول كما ترى، لكن المرض غير موجود.

ثم همست في أذني:

- بنات عائلات، كلهن، مازلن تلميذات.

قلت:

- أيهن ياسمين ؟

ضحكت الفتيات ولم تضحك المرأة العجوز.

قلت:

- أبحث عن فتاة اسمها ياسمين.

قالت المرأة ساخرة:

- إن الواحدة منهن تعطيك اسما وتنساه غدا فتعطيك اسما آخر.

قلت:

- آسف، ليس من أجل هذا دخلت.

ضحكت الفتيات. قصدت الباب. لكن العجوز اعترضت طريقي:

- ألا ترينا أولا وجه درهمك ؟

فكرت في الفضيحة. أعطيتها ورقة وخرجت ألعن الأبله وياسمين بينما كانت ضحكات الفتيات تحاصرني فتمنعني من التنفس الطبيعي.

مع ذلك منعني إحساس داخلي من أن أعود من حيث أتيت. مازال هناك شيء غامض يشدني إلى المنسية، وقد ظهر هذا الشيء وراء اهتمامي بأطلال المنسية، غير أنه ظهر أكثر، حين سمعت بوجود المنسية القديمة. فربما وجدت هناك شارع الأبله ورقم خمسة، وربما التقيت بياسمين وتعرفت على أهلها. وربما اكتشفت أن يا سمين واحدة من أفراد عائلتي أو من عائلة الأبله.. هذا هو الشيء الذي أستطيع أن أطلق عليه اسما...

ولكنه مازال يشدني إلى المنسية رغم بق وبرغوت وصراصير نزل الراحة.

وعلى كل حال، فإنه لم يبق لي في المنسية إلا هذا الزوال، والعطلة مازالت أمامي طويلة، وياسمين مازالت تبدو في عيني جميلة، جميلة جدا، تبدو في الصورة ذكية وطيبة ومثقفة وذات شعر طويل كمهرة وعينين تفيضان سحرا وحنانا ورغبة، وبشرة تسيل عسلا.

***

قال لي مرافقي:

- تذكر أني حذرتك وأخبرتك أن زيارة المنسية القديمة ممنوعة على الغرباء.

تساءلت:

- ماذا تعني بالغرباء ؟

وأدرك مقصودي فسكت. تابعت:

- إنهم يقصدون بهم الأجانب أولئك الذين يلتقطون صورا لكل شيء في بلادنا وكأنهم يكتشفون جدهم الأكبر المسمى بالإنسان البدائي...

أما أنا فمواطن، ولا شيء من مثل هذا يمكن أن يمنع عن مواطن مثلي.

انفجر الطفل ضاحكا في سخرية:

- أهلا سيدي المواطن، شرفتم يا حضرة المواطن، نعتذر لجاناب المواطن، تفضلوا سيدي، نحن نرحب بكم سعادة المواطن وندعوكم إلى زيارة المنسية القديمة آملين أن تجدوا فيها كل ما لذ وطاب وأن تنال من كرمكم ورضاكم وتفهمكم الشيء الكثير. هل تفضلون التنقل بواسطة الطائرة العمودية أو بواسطة السيارة ؟ الرجل ؟ تحبون الرياضة. طبعا. طبعا. لكننا نضع رهن إشارتكم سيارتنا الخاصة وسيارات الدولة وطائرة قائد المنطقة العسكرية. ويسرنا أن نخبركم بأن هذا المراهق هو الشخص المسؤول عن السرية المكلفة بحمايتكم وضمان راحتكم وأمنكم من كلاب المنسية وضفادع المنسية وبق المنسية وبرغوتها وأفواه المنسية وأيدي أطفالها العابثة بالجيوب والزرع والحيوان والإنسان. وإنا لمستعدون أن نضع بين أيديكم كل حراس المنطقة وكل كتابها وكاتباتها. كما يسعدنا أن نخبركم بأنكم مدعوون للغداء عند ولد الحمراء وللعشاء عند الهندي وللسهر عند زينة وللنوم إن بقيت لكم بقية وقت للنوم عندنا بسكنانا الخاصة. دامت لكم الأفراح والمسرات والعناية وكل عام ونحن على راحتكم ساهرون وعلى أمنكم قائمون ولرغباتكم ملبون ولعهدنا أوفياء. آمين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ضحكت مع ذلك:

- لا شك في أنك تناولت شيئا إضافيا مع طعام الغذاء أو أنك أكلت وجبة جيدة هذا اليوم.

قهقه حتى أمسك ببطنه وهو يكاد يسقط:

- علبة سراج مع نصف خبزة، سراج جيد وخبزة ممتازة، ولتحيا الصناعة التي تنتج أحذية تحتاج إلى تلميع مستمر، ومرحى للشركات التي مازالت تعمل على تطوير السراج من حسن إلى أحسن كي يستفيد منها أبناء المنسية. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

لم أقل شيئا. سرت إلى جانبه صامتا. لكنه ظل يضرب برجله كل ما يصادفه أو يبصق على أي شيء يراه ولا تصل إليه قدمه. تذكرت حكاية المستوصف:

- هل تدري أنك كنت على حق ؟

- متى ؟

- عندما تحدثت عن مستشفيات المدينة، رغم كل ما يمكن أن يقال، هناك بالفعل فرق كبير.

- أنا لم أغادر هذه القرية وكان ذلك كلاما في كلام.

ظل يضرب الأشياء أو يبصق عليها. تناسيته ورحت أفكر في ياسمين. قالت إنها لا تحب بالفعل تلك الهوايات التي تحدثت لي عنها في رسائلها الأولى، وأنها تلميذة مثلي في قسم البكالوريا. وهي تحب الرياضيات والشعر والفلسفة.

قالت إن صورتي قد أعجبها كثيرا، فأنا في نظرها أملك بنية رياضية كبروس لي، ولي عينان كعيني كلود فرنسوا وشعري مثل شعر كانط، وخطي يشبه خط نزار قباني، وأسلوبي في الكتابة كأسلوب المنفلوطي، وأحيانا كأسلوب جبران خليل جبران، وشفتاي كشفتي فريد الأطرش. قالت إنها صارت تحبني نظرا لهذا الشبه الذي يوجد بيني وبين هؤلاء وأنها لا تحب في الدنيا شيئا أكثر من حبها لهؤلاء الذين تذكرتهم جميعا ودفعة واحدة عندما رأت صورتي. وقالت أنها لهذا السبب بقيت بلا نوم يوما وليلة ولم تعد لديها رغبة في الدراسة إذ صارت حائرة في الإجابة عن هذا السؤال: هل وجدت أخيرا فارس أحلامي ؟

ولما لم تستطع الإجابة وحدها عن هذا السؤال الذي ذكرها بسؤال أبي الهول اندفعت بعد منتصف الليل تطرق باب صديقتها وكأنها مجنونة. فلما أخبرت هذه الصديقة الوفية احتارت الصديقة بدورها في الإجابة. غير أنه من حسن حظها أن أم صديقتها كانت تشتغل قارئة للورق. أيقظت الصديقة أمها وطلبت منها أن تستفسر الورق عما يقوله بشأني. لكن ظن ياسمين لم يخب في. فقد قال الورق ما معناه أني سأتخرج من الجامعة بأعلى الدرجات ثم أصير رب أعمال ناجح ومعروف وأن فتاة شعرها كشعر المهرة ستكون

وراء هذا النجاح. وحين سمعت ياسمين ما قاله الورق بكت كثيرا، فسألتها الأم والصديقة عما يبكيها، فقالت:

- أخشى أن يغيره النجاح والزمان وتلعب برأسه الشهرة.

قالت أم الصديقة:

- هذا أمر لا يعلمه إلا الله يا بنيتي وليس من حقك أن تشغلي بالك به.

إلا أن الخوف من هذا الذي لا يعلمه إلا الله قد تسبب لياسمين في مرض الزمها الفراش، فكتبت إلي تسألني: هل تظن أن النجاح والشهرة والمال من الأشياء التي تلعب بعقول الرجال ؟

أجبت باختصار، ولكن بلا تردد:

لا تقدر سوى على تغيير أولاد الحرام وقليلي العهد بالنعمة، وغالبا ما تكون الزوجة هي المسؤولة عن هذا التغير، وبما أنك لست من هذا النوع، فأنا أيضا لن أكون من ذلك النوع.

أخبرتني ياسمين في رسالتها التالية أنها قد شفيت تماما وأنها الآن مطمئنة على مستقبلنا. وطلبت مني أن أتحدث إليها بخصوص الطريقة التي أحب أن تكون عليها رفيقة حياتي لكي تتهيأ للأمر منذ الآن، وطلبت مني بالإضافة إلى ذلك أن أصف لها نوع الحياة التي سنحياها معا في المستقبل بعد أن وعدتني

بأنها ستتحدث إلي بدورها في نفس الموضوع كي يتم منذ الآن التمهيد لحياة سعيدة خالية من التناقض والنفاق. كتبت إليها:

ستكون لنا سيارات كثيرة وخدم كثيرون، وسيكون لنا بيت بالمدينة وآخر بالشاطئ، وفيلا بإسبانيا أو سويسرا وسنسافر كثيرا ونسهر كثيرا، ولن يكون لدينا وقت لنتخاصم. أما زوجتي فأريد أن تكون بسيطة وطبيعية في كل شيء.

أجابت ياسمين:

إذا كنت تحب أن تسافر، وتحب أن تسهر بهذا الشكل، فإنك ستسافر وحدك، وستسهر وحدك، وسأبقى في البيت أنتظر أن تعود كما تفعل النساء بنات الأصل، وأما البيوت فلن نكون في حاجة إلى ثلاثة بيوت ولا إلى خدم، فهذا تدبير لا يقبله عقل، يكفيني بيت متواضع أسهر فيه على تربية أولادي والعناية بهم وبزوجي العزيز، وأما عن صفات الزوجة، فأنا أكره التصنع والتكلف وأؤمن أن جمال المرأة في بساطتها وتواضعها لأنه لا يمكن أن أخدع الآخرين دائما بالألوان والأصباغ التي تزول وتفضح صاحبها مهما طال الزمان.

كدت أطير فرحا. فهذه هي المرأة النموذجية. وكتبت إليها:

يا سمين، أيتها العزيزة.

هل أقول أحبك، ملعونة كل الكلمات لأنها لا تستطيع أن تنقل إليك بعض ما يجيش به فؤادي، يجب أن نلتقي يا ياسمين. . .

إنك حلم حياتي، وصورتك لا تفارق فكري وقلبي، يجب أن نلتقي كي نرتب أمرنا، ونتفق على الأقل على نوع الدراسة في الجامعة. فمتى وأين وكيف ألقاك ؟

أجابت ياسمين:

تعال إلى المنسية، شارع الأبله، رقم خمسة.

***

كنا قد وقفنا على قمة الجبل الصغير حين أشار مرافقي بيده اليمنى بعيدا وقال:

- هذه هي المنسية القديمة، هل تراها ؟

على بعد ثلاثة كلمترات رأيت مجموعة من الأكواخ المتلاصقة إلى حد التداخل: خلتها في البداية بيتا واحدا أو مصنعا من تلك المصانع المهجورة التي توجد أحيانا في مثل هذه المناطق.

أحسست في داخلي بنوع من الخيبة. لكنني تذكرت صورة ياسمين وكلامها الجميل وتعال إلى المنسية، شارع الأبله، رقم خمسة. قلت لنفسي:

ربما خجلت أن تذكر لي مقر سكناها الحقيقي، فالفتيات غالبا ما يخجلن من مثل هذه الأمور، وكانت معنا زميلة تخجل أن تقول أن أباها بائع فحم. إنه يتحتم علي إذن أن أكون شجاعا مخلصا لأستحق حب ياسمين.

سألني الطفل الذي بدا متعبا أكثر مما تستوجب سنه:

- هل تستمر أو نعود ؟

قلت من غير أن أفكر في المسألة:

- نستمر!

وتنهد. ثم جلس القرفصاء وأدخل رأسه بين يديه ورجليه وترك جسده يتدحرج كالكرة إلى أن بلغ السفح. وهنا وقف ومسح التراب ثم أشار إلي بأن أفعل مثله. رفضت. نزلت ببطء وحذر. لكني بعد حين اضطررت إلى الجري. ثم اعترضت طريقي شجرة صغيرة، فسقطت، ووجدتني أتدحرج مثله إلى أن توقفت بين رجليه. كان يغالب ابتسامة ساخرة:

- لماذا لم تفكر في هذا من قبل، لماذا لم تقبله قبل أن ترغم عليه؟ يجب أن تستفيد مني في مثل هذه الأمور، أنا خبير، وليكن شعارك مثلي: ما أنت مرغم عليه افعله برضاك قبل أن ترغم عليه. إنها حكمة قديمة ورثتها عن جدي. هل لك جد؟ أقصد هل مازال حيا ؟

لم أجب فأخذ ينفض التراب الذي علق بثيابي ويحاول مساعدتي على النهوض. لم أتحرك من مكاني، كنت أشتم في سري الأبله والأبيض والشقراء وياسمين على الخصوص.

تابع طريقه:

- تحمل، يبدو أنك لن تعود سالما من المنسية. أنا آسف فقط لهذه الثياب الجميلة التي زينها البق والبرغوث وأتم زينتها تراب الجبل وأحجاره.

- لماذا لا تقوم، هل أصبت بالشلل، إذا شئت نعود. من الأفضل أن نعود.

جمعت جسمي ونهضت، قررت مع نفسي أن أشتمها، أن أصفعها، أن أقول لها: إنك معقدة، زانية، ولا تستحقين أن يحبك رجل صادق مثلي، إن مكانك في المبغى العام وليس في المنسية.

ثم قلت:

لعنة الله على الأستاذ والأبله والأبيض والشقراء وياسمين و... اذكروا موتاكم بخير.

أخرجني الطفل من هذا الهذيان.

- ستعجبك المنسية، لكنك لم تحدثني عن السبب الذي يجعلك تتحمل كل هذا العناء من أجل رؤيتها.

ارتبكت:

- أبحث عن كنز سيدنا سليمان.

- وماذا أيضا ؟

- أريد أن أتعرف على مسقط رأسي، أن أرتبط بأصلي وأحيي معه صلة الرحم.

- لا أفهم.

- أحسن لك.

- جدك مازال حيا ؟

- مات.

- أحسن له، مسكين، والله أحسن له، صرنا مشكلة بالنسبة لأنفسنا، عالة عليها، فكيف نستطيع تحمل مسؤولية الجد والجدة والأم والأب وربما الأخوة أيضا ؟

- هذا لا يهمك أيها. . .

- يبدو أنك لما خلقت شنق المزاح نفسه.

- أيها الولد.

- عدنا مرة أخرى إلى هذه ؟ لماذا تصر على أن تناديني يا ولد ؟ إن الفارق السني بيني وبينك لا يتجاوز الأربع سنوات.

- النضج لا يقاس بالسنوات.

- أراهن على أنك لا تملك رطل نضج مما أملك وأنك لا تعرف ذرة مما أعرف، إذا استثنينا طبعا ما تلقيته بالمدرسة وهو

كما تعلم لا يفيد في شيء وينسى بعد مدة قصيرة من تعلمه، بالمناسبة هل الفاعل مرفوع أو منصوب ؟

- اخرس !

- والمفعول به ؟ والمفعول معه ؟ والمفعول فيه ؟ والمفعول بجانبه ؟ والمفعول له والمفعول بقربه، والمفعول بالرغم منه ؟ والمفعول بالنيابة عنه ؟

- قلت لك اخرس.

- والجار المجرور، هل تعرف غير الجار والمجرور ؟ أنا أعرف الجار والمجرور والمجرور به والمجرور له. كلنا جار ومجرور ومجرور به. هل تعرف المجرور له ؟

- السراج خرب عقلك. أرجو أن تصمت.

- ومن يتكلم إذا سكتت ؟ إنك لا تريد أن تتكلم معي. وأنا الصمت يثيرني. لقد صرت مثل الجرو الذي قطع لسانه، أكل هذا لأنك سقطت وتدحرجت ؟ صف شعورك وأنت تسقط وتتدحرج وقارنه بشعور صديقك وهو يسقط ويتدحرج بعدك.

- أرجو أن تصمت. إن الكلام يثيرني.

- وأنا الصمت يثيرني. لكن معك الحق، يجب أن أصمت، فما أنا في نهاية الأمر إلا مرشد، وليس من حق المرشد أن يتكلم مع السياح في السياسة أو يتحدث معهم في أشياء أخرى إن

تبد لهم تسوءهم وتكدر صفاء ذهنهم فيمرضون ويستهلكون قسما من الدواء المخصص للشعب، أو يعودون من حيث أتوا، فنحرم الشعب من رصيد هام من العملية الصعبة، بالمناسبة، كيف حال رأسك؟ أقصد آثار العض.

ألا تستطيع أن تصمت قليلا ؟ ألا يتعبك الكلام ؟

- بيني وبينك: الكلام رياضة، وأنا حين أصاب بالملل أو تضيق الدنيا في عيني، أتكلم، أتكلم، وأتكلم حتى لا تبقى كلمة واحدة على لساني. أتكلم في أي شيء، لا يهمني الموضوع، ولا يهمني مع من أتكلم إذا لم أجد من أتكلم معه أتكلم مع نفسي، أتكلم مع الشارع، وقد أتكلم مع شجرة أو حافلة أو سروالي أو مع عود الثقاب...

- وما شأني أنا بكل هذا الهراء ؟

- صدقت، وما شأنك أنت بكل هذه الثرثرة ؟ فما أنا إلا مرشدك وأنت لا تعطيني ثلاثة دراهم في اليوم لأتكلم، ولكن لأرشدك إلى ما تريد أن ترى وتعرف ولأجيب عن أسئلتك بلا أو نعم، لماذا لا تسألني فأكتفي بلا أو نعم ؟

- عن أي شيء تريد أن أسألك ؟

- عن مشاريعي، عن أحلامي، عن أي شيء يخصني.

- هذه أمور لا تهمني. وقد سبق أن قلت لك أني لست رئيس جمعية خيرية أو وزيرا. .

- طيب أنا أقول لك من غير أن تسألني. أنا أوفر كل يوم درهما. وسأظل أقوم بهذا إلى أن تجتمع لدي ما يكفي من الدراهم لشراء مقهى. أقسم لك أنك عندما تعود إلى المنسية الجديدة بعد عشرة أعوام ستجدني قد اشتريت هذه المقهى، مقهى مثل تلك المقاهي التي عندكم في المدينة. وأنا لن أتزوج، سأظل أجمع الدراهم إلى أن يصير معي منها الكثير، ما يكفي لشراء مقهى بالمدينة، حينئذ أرحل إلى هناك وأتزوج وأرسل أولادي إلى مدرسة حقيقية وأدفع المال لمعالجتهم في العيادات الخاصة.

- لن يمهلك السراج إلى أن تحقق هذا.

- السراج، السراج، السراج، تفو. . عندما أصبح غنيا لن أحتاج إلى السراج، هل رأيت غنيا يستعمل السراج ؟

- قلت لك ستموت قبل أن تجمع دراهمك الموهومة.

- .لماذا أنت قاس معي إلى هذا الحد ؟ لماذا لا تريد أن تكون صديقا لي؟ إنك قد تحتاج إلى مساعداتي ذات يوم، عندما أصير غنيا.

- أنا لست قاسيا معك، أريد أن تصمت وتريحني، إني لم أعد مستعدا لسماع خرافاتك.

خرافاتي ؟ ألم أقل لك إنك لا تفهم في الحياة شيئا تصور يا سيدي أن كل الأغنياء الكبار كانوا مثلي، انطلقوا من لا شيء: ولد الحمراء والهندي، زينة. . هل تعرفهم ؟

- لا أريد أن أعرف أحدا، وأحمد الله على أن هذا آخر يوم لي بالمنسية.

- إنك غريب حقا، لا تشبه من هم في سنك، إنك جاد أكثر من اللازم أو تتصنع كثيرا من الجد، ربما لأنك متعب، ربما لأنك من المدينة وأنا من المنسية.

- أرجوك، دعنا نسأل على الأقل عن شارع الأبله.

- أيها الطفل، إيه، أنت، نعم، أنت تعال.

جاء الطفل ووقف أمامنا صامتا كالتمثال. قال مرافقي:

- إسأله، ماذا تنتظر، أن يسألك هو ؟

سأل الطفل:

- هل تعرف شارع الأبله ؟

أجاب الطفل:

- لا

وانصرف. وحين التفتت إلى مرافقي وجدته يضحك. قلت:

- ماذا يضحكك ؟

قال:

- شارع الأبله !

واستمر يضحك. ثم قال:

- هل جننت ؟ هل يمكن أن يوجد شارع في هذه المزبلة ؟ أحمد الله على أني لم أستمر في الدراسة مثلك.

كان كلامه وتوتر أعصابي قد منعاني من أن أكون صورة عن المنسية القديمة ونحن نقترب منها.

تقع المنسية وسط سهل صغير يقع مباشرة بعد الهضبة الصغيرة التي تعقب الجبل. لكن السهل يبدو مهملا، وكأنه لم يحرث منذ سنوات. وما عدا ثلاث شجيرات بالجبل وأخرى تتوسط الهضبة فإنه لا وجود للخضرة بهذه المنطقة، وتظهر وكأنها محروقة منذ أقل من شهر. كل شيء يبدو بين الحمرة والسواد، باهتا، كأن حريقا التهم النبات ولم يستثن غير الشجيرات الأربع.

وما عدا بعض رؤوس الحمير والدجاج والماعز والطفل الذي التقيناه وهو يصطاد عقربا فإن المكان يبدو وكأنه خال من الحياة، كأنه ثكنة عسكرية هجرتها كتيبة ملت انتظار الأعداء. وفي هذا الجو الخانق الذي يصعب داخله التنفس لا بد أن يشعر المرء بانقباض في القلب.

كل المنسية القديمة صف من الأكواخ المتداخلة يمتد على مساحة قد لا تتسع لأكثر من عمارتين متوسطتين، أمام الأبواب نساء وأطفال وشيوخ. يظهر أنه لا أحد مازال بالداخل. وسط البركة الصغيرة المتكونة من الماء المستعمل

داخل الأكواخ أو خارجها يوجد أطفال وبط لا يكفون عن الحركة والصياح.

بعض الشيوخ نائمون تقريبا أمام الأبواب. النساء يشتغلن في أشياء مختلفة مثل غسل الثياب وإعداد الطعام أو عزل حبوب القمح ويتحدثن، ومنهم من يساعدون أمهاتهم أو يحملون صغيرا فوق ظهرهم، ومنهم من اكتفى بالجلوس قرب الشيوخ تاركا للذباب حرية أن يجتمع حول عينيه وأنفه وفمه من غير أن يجد القوة أو الإرادة لطرده. تذكرت الدرس الخاص بذبابة تسي تسي التي تتسبب في مرض النوم.

بالإضافة إلى الذباب والخمول فإن أهم ما يثير الانتباه هو بروز بطون الأطفال والنساء بشكل ملفت للنظر.

بعد أن بصق مرافقي مرات عديدة أثارت أعصابي أكثر مما أثارني مشهد المنسية. قال:

- هذا هو شارع الأبله، هل يمكن أن نعرف عمن تبحث؟

تجاهلته. وتابع:

- نرجو أن يهتم سيدنا بهذه الحشود الهائلة من الجماهير وأن يتشرف برد تحياتها.

كان بعض الأطفال قد اجتمعوا حولنا وأخذ عددهم يزداد بسرعة بحيث شكلنا موكبا حقيقيا.

قال مرافقي في أذني اليمنى:

- سيداتي وسادتي، نحن نقترب من صاحب الحظ السعيد، بعد قليل يصل سيدنا مجنون الأبله إلى ..

قاطعته:

- اخرس!

وسألت الأطفال:

- أين يوجد رقم خمسة ؟

أجاب أكبرهم:

- الأكواخ بلا أرقام، عمن تسأل ؟

ترددت:

- عن ياسمين!

صاح طفل من الجماعة:

- ياسمين !

اعترضت امرأة (ربما كانت أمه)،

- ماذا تريد منها ؟

أجاب الطفل:

- يسأل عنها هذا الشاب.

صاحت المرأة بصوت أعلى:

- ياسمين، يا سمين !

أجابت امرأة من داخل أحد الأكواخ:

- من ؟

رددت المرأة الأولى:

- شاب يسأل عنك.

قال الطفل الثاني:

- اقترب من بيتها.

اقتربت وسط جمع الأطفال وتوقفت عند أحد الأبواب عندما أشار إلي الطفل. ثم خرجت امرأة تتكئ على عكاز.

سألت المرأة:

- من ؟

حدست أنها عمياء.

قلت:

- أسأل عن ياسمين.

قالت المرأة العمياء:

- أنا ياسمين. من أنت وماذا تريد ؟

كدت أسقط من هول المفاجأة. قلت لنفسي: تماسك، تماسك أيها الأحمق.

وقلت للمرأة:

- أبحث عن فتاة اسمها ياسمين، هي ابنة خالتي، جاءت إلى المنسية بعد أن أصيب زوجها بداء السل ونصحها الأطباء بان تصحبه إلى المنسية.

تساءلت المرأة العمياء:

- فتاة ! ؟ لا أعرف فتاة متزوجة !

استدركت:

- أقصد مخطوبة.

قالت العمياء:

- لا أعرف أحدا بهذا الاسم.

وأغلقت الباب وراءها بعد أن دخلت. قال أحد الأطفال:

- لا يوجد أحد في المنسية بهذا الاسم غير العجوز.

قالت المرأة التي نادت من قبل على أمي ياسمين:

- لا يوجد بيننا من يحمل هذا الاسم غير المرأة التي رأيت.

كان جسمي يتصبب عرقا. تقدم شيخ بعد أن استيقظ فجأة من نومه أو ما يشبه النوم:

- هل أنت على يقين من أنها تسكن هنا ؟

قلت وقد عاد إلي بعض الأمل:

- متأكد، وهذا عنوانها.

تناول الشيخ الورقة، تفحص العنوان قليلا. ثم ردها إلي قائلا:

- ماذا يقول العنوان ؟

قرأت:

- المنسية شارع الأبله، رقم خمسة.

قال الرجل وكأنه يصحح خطأ خطيرا وقعت في ارتكابه:

- هذه يا ولدي دار الأبله المنسية، وهناك، على بعد خمسة كلمترات، توجد دار ولد الأبله المنسية، وعلى بعد عشرين كلمترا من هذه توجد دار الأبيض المنسية. أما المنسية الحقيقية، القرية التي تحمل هذا الاسم، فهي توجد على بعد ثمانين كلمترا من هنا. وإذا خفت أن تتيه اسأل عن المنسية الغربية، فربما كانت هناك منسية شرقية وأخرى شمالية وأخرى جنوبية، ربما كانت في كل مكان منسية. الناس تقول هذا. أما أنا فلم يسبق لي أن زرت غير المنسية الغربية. لقد زرتها مرارا، وأنا على يقين أنه يوجد بها شارع اسمه شارع الأبله، وأؤكد لك أن رقم خمسة موجود بها هو كذلك. خذ الحافلة من دار ولد الأبله صباحا وستصل إليها في اليوم التالي زوالا.

اتكأت على كتف مرافقي وشكرت الشيخ الذي عاد إلى نومه. كان الأطفال يضحكون. اقترب مني أحدهم وهمس في أذني:

- الرجل أحمق، يختلق أشياء كثيرة، مدنا وتواريخ وأناسا.

طلبت من مرافقي أن يسندني. سار الأطفال خلفنا إلى أن اقتربنا من الجبل. لكنهم فجأة أخذوا يصيحون:

- ياسمين، ياسمين، ياسمين، آه ياسمين !

تركني مرافقي ودخل معهم في معركة بالحجارة. أصابني أحدهم في جبهتي. ارتميت فوق الأرض. صاح مرافقي:

- انج بجلدك.

ولما لم أفعل أخذ يركلني إلى أن قمت وتابعت طريقي عبر الجبل تحت وابل من الحجارة. على القمة وقفت ونظرت إلى السفح. مازال يخوض معركة ضد الأطفال: نظرت إلى المنسية. تساءلت: أين توجدين أيتها القرية الزانية ؟

هل صرت كابوسا أو خرافة أو أسطورة ؟ ثم تنهدت:

- وداعا ياسمين !

أستطيع أن أزعم الآن أني صرت أفهم لماذا اختلفت كتب التاريخ بشأن الأبله، ولماذا اختلفت بشأنه الأستاذ وجدي وجدتي. وأنا مدين بهذا لأحمق المنسية « القديمة ».

ربما كان هذا الاختلاف في جوهره اختلافا بشأن المنسية، فلكل أبيضه وأبلهه وشقراؤه، أي لكل منسيته. ولقد صارت لي بدوري منسيتي (كما كانت لأستاذي منسيته ولجدتي منسيتها، ولجدي منسيته): تلك التي توجد بها ياسمين الحلم، تلك التي أعرفها وأجهلها، أحبها وأكرهها. تلك التي أجدها ولا أجدها. لكنني قررت أن أنساها، أن أهجرها كما هجر منسيتهم الآخرون قبلي، لتظل مجرد وشم دام في الذاكرة، مجرد كابوس. أما المنسية التي أوجد بها الآن فهي تمتد أمامي

شارعا من الدماء أو العرق أو البرك التي يسكنها الرعب. وها مرافقي مستلق بين كرسي وطاولة بعد أن حكيت له عن المنسية كما سمعت حكايتها من جدتي وجدي وأستاذي، يظل يردد باستمرار سؤالا يبدو أنه يحيره:

- ياسمين ؟ لماذا لا يكون اسمها ناديا أو نورا أو. . . ؟

قررت أن أريحه:

- سمها من تشاء، فماذا تفيد الأسماء ؟

إلا أنه لم يتخلص من السؤال:

- لماذا لا يكون اسمها. . . . ؟

لكنه يسمع صوت محرك سيارة تتوقف فيهب واقفا ويهرب نحو الرجل النحيف الطويل يفتح له الباب قبل أن ينزل السائق ليفتحه لسيده، ثم ينحني الطفل على اليد النحيفة (اليد اليمنى) ويشبعها تقبيلا، ثم يسير وراء الرجل إلى أن يدخل بيتا من باب كبيرة، فيرجع إلى مكانه لينسى السؤال ويستلقي بين الكرسي والطاولة. تأخذني الحيرة بينما يبدو الطفل مرتاحا.

سألته:

- من يكون ؟

- الهندي!

ويسكت كأن الكلمة كافية لتوضيح كل شيء.

- من يكون الهندي ؟

- ألا تعرفه ؟ وماذا تعرف إذن ؟

- أظن أننا قررنا ألا نعود إلى هذا الأسلوب.

- عفوك سيدي المواطن الكريم، ولد الحمراء يحتكر الأرض، أقصد يملك كل الأرض تقريبا، وأما الهندي فهو الذي يوزع على باعة المنسية المواد الغذائية ومواد البناء والدقيق والبنزين والفحم واللحم. هل تعرف زينة ؟

- من تكون، امرأة ؟

- طبعا امرأة، وهل تعتقد أنها جنية ؟ إنها المرأة التي توزع اللذة والمرح، ولها من القوة والنفوذ والثروة مثلما لولد الحمراء والهندي.

- إذن، هذا هو الثلاثي المقدس: الأبله والأبيض والشقراء، مازالوا على قيد الحياة. أقول أني أخطأت الطريق إلى المنسية، هذه هي المنسية حقا، فلماذا يحاولون تضليلي ؟

- ماذا تعني ؟

- زينة شقراء، أليس كذلك ؟

- كيف عرفت ؟

- إذن هذه هي منسيتك أنت، أنت أيضا لك منسيتك. لكنك محظوظ لأنك تعرف ثلاثيها المقدس. وهذه منسية جدتي وجدي !

- أرجو ألا تعود مرة أخرى إلى هذه الحكاية. إنها لا توجد إلا في خيالك. وعلى كل حال، فأنا لست مستعدا لمرافقتك إلى المنسية الغربية.

أدركت سخريته. لكني تجاهلتها. وسألته:

- ولماذا أعطيتموني كل تلك المعلومات الخاطئة ؟

- أية معلومات ؟

- عندما سألتكم عن القصر والسد والغابة.

- تعرف أن السياح يجب أن يجدوا كل ما يبحثون عنه. رغبة السائح مقدسة. ونحن مضطرون إلى إرضائها ولو عن طريق الكذب.

- هكذا إذن ؟

- سر المهنة، ماذا تريد ؟ أن نموت جوعا ؟

ضحكت من نفسي وعليها طبعا.

قال:

- يجب أن تكون رياضيا، من ذلك النوع الذي يتوافر على روح رياضية عالية.

وقلت لنفسي:

- معه الحق!

وطلبت قهوتين إضافيتين.

كنا ننتظر الحافة. بعد أن مكثنا قليلا، نظر إلى رجليه المحتقنتين ثم قال:

- إذا كنت محظوظا فإن الحافة ستأتي، ولكني لا أستطيع أن أضمن لك هذا مع ذلك، فالحافلات قد تأتي ملأى من المدن فلا تعرج على المنسية أو تتوقف بها إلا ليستريح الركاب ويتناولون أكلات خفيفة. أحيانا قد تنتظر طول اليوم فتضطر إلى قضاء ليلة أخرى بالمنسية، بنزل الراحة.

- هل تمزح ؟

- كلا، والله، هناك طريق مختصر يفضله السائقون عندما تكون حافلاتهم ملأى. لا تتوافر هنا باستمرار إلا فرص التنقل بين المنسية والقرى الأخرى، أما بين المنسية وبقية المدن فإن الفرص نادرة.

- كما هي المواصلات داخل المدن طبعا، لكن اطمئن، سأرجع إلى البيت ولو في شاحنة، أما حكاية المنسية الغربية فإنها لا تغريني، ويجب أن تكف عن محاولة ابتزاز دراهمي.

- أردت أن أقول: إذا شئت، بإمكانك أن تنام عندي.

- أين ؟

- في الحانوت مع الأصدقاء.

- أشكرك.

- كما تشــاء، أنا قلت فقط إنك مريض ومتعــب، وربما كــان من الأدب أن...

- أشكرك، لا داعي لأن تحرج نفسك.

- كما تشاء

وظهر كمن مس في كرامته فسكت. لكنه نظر إلى رجليه وعاد

يقول:

- لم تعطني عنوانك.

فوجئت:

- عنواني ؟

- إيه، عنوانك بالمدينة، قد أكتب إليك. . .

- وبإمكانك أن تأتي عندنا إلى البيت إن أردت

- صحيح ؟

- والله

- أخشى أن تكون مازحا، فهذه الآلام، وهذه التجربة قد تغير جبلا.

- لا. اطمئن. هل تستطيع أن تأتي بقلم وورقة ؟

- طبعا.

ونهض مسرعا يبحث عن القلم والورقة. لكنه عاد وهو يلهث من شدة الجري:

شا. . . شا. . . . شاحنة

وفي غمرة الوداع نسيت أن أعطيه عنواني. تألمت حين أبصرته عبر المرآة يلوح بيده اليمنى وهو يمسك بها الورقة والقلم.

* ● *

❑ سلسلة كتاب الجيب:

العدد	المؤلف	العنوان
العدد 1	عبد الله إبراهيم	ثورة العقل
العدد 2	عبد الإله بلقزيز	العنف والديمقراطية
العدد 3	محمد ضريف	الحركة الإسلامية: النشأة والتطور
العدد 4	محمد سبيلا	المغرب في مواجهة الحداثة
العدد 5	عبد الكريم برشيد	المؤذنون في مالطة
العدد 6	حسن أوريد	الإسلام و الغرب و العولمة
العدد 7	عبد الواحد الناصر	حرب كوسوفو: الوجه الآخر للعولمة
العدد 8	عبد السلام حيمر	مسارات التحول السوسيولوجي في المغرب
العدد 9	أحمد الريسوني	الفكر المقاصدي: قواعده وفوائده
العدد 10	ادريس كثير- عز الدين الخطابي	أسئلة الفلسفة المغربية
العدد 11	إدريس الخرشاف	المعرفة الإسلامية والعولمة، آي آفاق؟
العدد 12	سعيد يقطين	الأدب و المؤسسة
العدد 13	طه عبد الرحمن	حوارات من أجل المستقبل
العدد 14	محمد شقرون	الكتابة و السلطة و الحداثة
العدد 15	نور الدين أفاية	أسئلة النهضة في المغرب

العدد	المؤلف	العنوان
العدد 16	محمد أسليم	الإسلام و السحر
العدد 17	عبد الإله بلقزيز	«حزب الله » اللبناني
العدد 18	المهدي المنجرة	عولمة العولمة
العدد 19	أحمد هوزلي	المغرب : البترول و التنمية
العدد 20	الميلودي شغموم	المعاصرة و المواطنة
العدد 21	محمد يتيم	الحركة الإسلامية بين الثقافي و السياسي
العدد 22	سعيد بنسعيد العلوي	الإسلام و أسئلة الحاضر
العدد 23	يحيى اليحياوي	العولمة و مجتمع الإعلام
العدد 24	زهور كرام	في ضيافة الرقابة
العدد 25	مالكة العاصمي	نحن وأسئلة المستقبل
العدد 26	عبد الهادي بوطالب	العالم ليس سلعة
العدد 27	مصطفى المسناوي	أبحاث في السينما المغربية
العدد 28	عبد الواحد أكمير	الهجرة إلى الموت
العدد 29	سعيد بنكراد	السميائيات السردية
العدد 30	بنسالم حميش	في معرفة الآخر
العدد 31	عبد النبي ذاكر	صورة أمريكا في متخيل الرحالين العرب
العدد 32	مجموعة من الكتاب	الديانات السماوية وموقفها من العنف
العدد 33	عبد الله ساعف	أحاديث في السياسة المغربية

العدد	المؤلف	العنوان
العدد 34	وزارة التربية الوطنية	الجهود الإصلاحية بقطاع التربية والتعليم
العدد 35	محمد اليازغي	ذاكرة مناضل
العدد 36	سعيد شبار	الحداثة في التداول الثقافي العربي الإسلامي
العدد 37	سعد الدين العثماني	بالإمامة تصرفات الرسول (ص)
العدد 38	عبد القادر الفاسي الفهري	اللغة و البيئة
العدد 39	محمد سبيلا	دفاعا عن العقل و الحداثة
العدد 40	مجموعة من الكتاب	المثقفون المغاربة وتفجيرات 16 مايو
العدد 41	أحمد شحلان	التوراة و الشرعية الفلسطينية
العدد 42	كنزة الغالي	نساؤنا المهاجرات في إسبانيا
العدد 43	حنان السقاط	بين الاستشهاد و الإرهاب
العدد 44	هشام العلوي	الجسد بين الشرق و الغرب (نماذج و تصوات)
العدد 45	بشير قمري	دراسات في السينما
العدد 46	عبد النبي رجواني	التعليم في عصر المعلومات (تجديد تربوي أم وهم تكنولوجي)
العدد 47	عبد القادر العلمي	في الثقافة السياسية الجديدة
العدد 48	إدريس كثير / عز الدين الخطابي	في الحاجة إلى إبداع فلسفي

العدد	المؤلف	العنوان
العدد 49	الحبيب الجنحاني	المجتمع المدني و التحول الديمقراطي في الوطن العربي
العدد 50	القاضي عياض	في محبة المصطفى (ص)
العدد 51	سعيد بنسعيد العلوي	شروط المصالحة مع السياسة في المغرب
العدد 52	محمد سليم العوّا	العلاقة بين السنة والشيعة
العدد 53	إدريس مقبول	المخفي والمعلن في الخطاب الأمريكي
العدد 54	التهامي الحراق	موسيقى المواجيد (مقاربات في فن السماع الصوفي المغربي)
العدد 55	ابراهيم أبراش	الثورات العربية.. في عالم متغير (دراسة تحليلية)
العدد 56	سعيد بنكراد	الدستور المغربي الجديد
العدد 57	الدكتور أحمد بوعود	محمد رسول الله
العدد 58	جوليان سيمونز ترجمة وتقديم: الدكتور علي القاسمي	القصّة البوليسيّة تاريخها، وقواعدها، وتقنياتها

❑ **كتاب الجيب بالفرنسية:**

العدد 1	Abdelkader Fassi Fehri	Langue et Ecologie

❑ **سلسلة قضايا تاريخية:**

العدد	المؤلف	العنوان
العدد 1	محمود إسماعيل	الفكر التاريخي في الغرب الإسلامي

العدد	المؤلف	العنوان
العدد 2	إبراهيم القادري بوتشيش	مستقبل الكتابة التاريخية في عصر العولمة والإنترنيت
العدد 3	عبد الإله بنمليح	ظاهرة الرق في الغرب الإسلامي
العدد 4	الحسين بولقطيب	جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين
العدد 5	محمد تضغوت	البنية الثقافية وقضايا الفكر في المجال المغربي الإسلامي
العدد 6	بوبة مجاني	المذهب الإسماعيلي وفلسفته في بلاد المغرب
العدد 7	محمد استيتو	الفقراء في المغرب (نماذج من القرنين 16 و 17 م)
العدد 8	مصطفى نشاط	جوانب من تاريخ المشروبات المسكرة بالمغرب الوسيط
العدد 9	حماه الله ولد السالم	تاريخ موريتانيا
العدد 10	أحمد المكاوي	الدور الاختراقي و الاستعماري للطبابة في المغرب
العدد 11	فاطمة بلهواري	التكامل الاقتصادي والمبادلات التجارية بين المدن المغاربية خلال العصر الوسيط
العدد 12	سعيد بنحمادة	النظام التعليمي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط
العدد 13	عبد الحق المريني	محطات في تاريخ المغرب المعاصر (1894-1956)

❑ سلسلة روايات الزمن:

العدد	المؤلف	العنوان
الرواية 1	الطاهر وطار	الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي
الرواية 2	محمد عز الدين التازي	ضحكة زرقاء
الرواية 3	يوسف القعيد	قطار الصعيد
الرواية 4	محمد الهرادي	ديك الشمال
الرواية 5	للروائي العالمي إرنست همنغواي ترجمة: د. علي القاسمي	الوليمة المتنقلة
الرواية 6	عبد الرحمن مجيد الربيعي	الوشم
الرواية 7	حسونة المصباحي	الآخرون
الرواية 8	هدى بركات	حارث المياه
الرواية 9	محمد أنقار	المصري
الرواية 10	نبيل سليمان	سمر الليالي
الرواية 11	الطاهر وطار	الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء
الرواية 12	مجيد طوبيا	الهؤلاء
الرواية 13	شاكر نوري	نافذة العنكبوت
الرواية 14	عبد الرحمان مجيد الربيعي	الوكر
الرواية 15	ياسين رفاعية	أسرار النرجس
عدد استثنائي	هنريك ابسن	بيت الدمية
عدد استثنائي	عفيفة كرم	بديعة وفؤاد

العدد	المؤلف	العنوان
الرواية 18	للروائي العالمي إرنست همنغواي ترجمة: د. علي القاسمي	الشيخ والبحر
الرواية 19	عبد الرحمان مجيد الربيعي	الأنهار
الرواية 20	ألن لايتمن. ترجمة: علي القاسمي	أحلام أنشتاين
الرواية 21	لودفيغ هولبرغ. ترجمة: علي القاسمي	الفلاح البائس (ليس للضحك فقط..!)
الرواية 22	للروائية ألينا ريس ترجمة وتقديم: محمود عبد الغنى	حب في إفني

❑ سلسلة ضفاف:

العدد	المؤلف	العنوان
العدد 1	تأليف: كاترين كليمان ترجمة: محمد سبيلا وحسن أحجيج	التحليل النفسي
العدد 2	تأليف: رولان بارت ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي	التحليل النصي
العدد 3	تأليف: د. ميخائيل فوسلينسكي ترجمة: د. سناء المصطفى الموصلي	سقوط الإمبراطورية الحمراء

العدد	المؤلف	العنوان
العدد 4	أليف: جيلبير كرانفال ترجمة: محمد بن الشيخ	أسرار مهمتي بالمغرب
العدد 5	تاليف: ماريا ريكله/ فارغاس يوصا ترجمة وتقديم: أحمد المديني	رسائل إلى شاعر ناشئ روائي ناشئ
العدد 6	تأليف: نيكولاس باباندريو ترجمة: مروان عكاوي	سياسة ورقص
العدد 7	تأليف: أمبروسيو هويثي ميراندا ترجمة: عبد الواحد أكمير	التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية
العدد 8	تأليف: بول لوران أسون ترجمة وتقديم: محمد سبيلا	التحليل النفسي (أسسه الفلسفية ومكتشفاته الكبرى)
العدد 9	تأليف: ميغيل هيرناندو دي لارامندي ترجمة: عبد العالي بروكي	السياسة الخارجية للمغرب
العدد 10	تأليف: مارية روسادي ماداriاغا ترجمة: كنزة الغالي	مغاربة في خدمة فرانكو

العدد	المؤلف	العنوان
العدد 11	تأليف: خيما مارتين مونيوث ترجمة: كنزة الغالي	الإسلام والمسلمون في إسبانيا (من خلال دراسات ميدانية)
العدد 12	تأليف: خوان باندو ترجمة: سناء الشميري	التاريخ السري لحرب الريف (المغرب.. الحلم المزعج)
العدد 13	تأليف: خوان غويتيصولو ترجمة: عبد العالي بروكي	إسبانيا في مواجهة التاريخ .. فك العُقَد
العدد 14	تأليف: بيرنابي لوبيس كارسيا ترجمة: بديعة الخرازي	الانتخابات المغربية منذ سنة 1960 إلى الآن...
العدد 15	تأليف: مجموعة من المؤلفين ترجمة: محمد سبيلا	إشكاليات الفكر المعاصر
العدد 16	تأليف: رامون لوريدو دياث ترجمة: - د. مولاي احمد الكمون- د. بديعة الخرازي	السياسة الخارجية للمغرب (في النصف الثاني من القرن الثامن عشر) الجزء الأول/ الجزء الثاني:
العدد 17	تأليف: رامون لوريدو دياث ترجمة: - د. مولاي احمد الكمون - د. بديعة الخرازي	المغرب وأحلام الزعامة على الغرب الإسلامي
العدد 18	القبطان سعيد كنون- تعريب: الدكتور محمد بوكبوط	الجبل الأمازيغي آيت أومالو وبلاد زايان المجال والإنسان والتاريخ

❑ سلسلة شرفات:

العدد	المؤلف	العنوان
العدد 1	حسن المنيعي	أبحاث في المسرح المغربي
العدد 2	عبد الإله بلقزيز	زمن الانتفاضة
العدد 3	نور الدين أفاية	السلطة والفكر
العدد 4	عبد الرحمان بن زيدان	التجريب في النقد والدراما
العدد 5	إبراهيم أبراش	الديمقراطية بين عالمية الفكرة وخصوصية التطبيق
العدد 6	عبد الهادي بوطالب	نصف قرن في السياسة
العدد 7	علي القاسمي	من روائع الأدب المغربي
العدد 8	علال الأزهر	الماركسيون في المغرب (الطبعة الثانية)
العدد 9	عبد الحفيظ حمان	المغرب والثورة الفرنسية
العدد 10	عبد الحفيظ العمري	الشطرنج هدية العرب إلى العالم
العدد 11	سعيد بنكراد	السميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها
العدد 12	مجموعة من الاختصاصيين	ثورة هادئة: من مدونة الأحوال الشخصية إلى مدونة الأسرة
العدد 13	محمد الشيخ	مسألة الحداثة في الفكر المغربي المعاصر
العدد 14	أحمد الخمليشي	وجهة نظر: ج 5 لماذا لا نربط بين التنظير والممارسة

العدد	المؤلف	العنوان
العدد 15	عبد السلام حيمر	المغرب: الإسلام والحداثة
العدد 16	كمال عبد اللطيف	في مواجهة اليأس العربي
العدد 17	محمد الشيخ	ما معنى أن يكون المرء حداثيا
العدد 18	عبد الإله بلقزيز	الحرب الإسرائيلية على لبنان (شهادات من قلب الحصار)
العدد 19	جميل حمداوي	من قضايا التربية والتعليم 2006
العدد 20	عبد النبي رجواني	حول إصلاح التعليم
العدد 21	المصطفى وزاع	الكلام المكمول لسيدي امحمد البهلول (ديوان عزري العلوة)
العدد 22	محمد سليم العوّا	الفقه الإسلامي في طريق التجديد
العدد 23	جميل حمداوي	من مستجدات التربية الحديثة والمعاصرة
العدد 24	جميل حمداوي	من الإبداع الروائي إلى نقد النقد (من مقررات البكالوريا)
العدد 25	جميل حمداوي	المسرح الأمازيغي
العدد 26	مصطفى محسن	مدرسة المستقبل (رهان الإصلاح التربوي في عالم متغير)
العدد 27	مجموعة من المؤلفين	التصوف السني في تاريخ المغرب (نسق نموذجي للوسطية والاعتدال)

العدد	المؤلف	العنوان
العدد 28	أحمد بوعود	الظاهرة القرآنية عند محمد أركون
العدد 29	المقرئ الإدريسي أبو زيد	الغلو في الدين.. المظاهر و الأسباب
العدد 30	مجموعة من الكتاب	الديانات السماوية وموقفها من العنف
العدد 31	عبد الله الشارف	تجربتي الصوفية (مساهمة في فهم الكيان الصوفي)
العدد 32	عبد النبي الرجواني	الأنترنيت والديمقراطية (إنعاش وتجديد أم تقويض وتأزيم؟)
العدد 33	مصطفى محسن	رهانات تنموية (رؤى سوسيوتربوية وثقافية نقدية)
العدد 34	عبد السلام حيمر	مسارات التحول السوسيولوجي في المغرب
العدد 35	محمد الشيكر	في الفلسفة الألمانية: هايدغر ضد نتشه
العدد 36	عبد الواحد الناصر	تقنيات البحث (من التأسيس والتركيب إلى النقد والتأصيل)
العدد 37	سعيد بقطين	المغرب.. مستقبل بلا سياسة؟ (في الثقافة والسياسة والمجتمع)
العدد 38	د. محمد اندلسي	نيتشة و معضلة التربية

العنوان	المؤلف	العدد
الإنسان في القرآن	أحمد بوعود	العدد 39
مناظرة صوفية معاصرة	د. عبد الله الشارف	العدد 40
بلاغة الصورة السردية	الدكتور جميل الحمداوي	العدد 41
بلاغة الصورة الروائية	الدكتور جميل الحمداوي	العدد 42
الصورة... الأنا، الآخر	عبد النبي ذاكر	العدد 43
إسبانيا والمغرب، نظرات متقاطعة	عبد النبي ذاكر	العدد 44
السند والشهادة، دراسة في السيرة الذاتية لابن خلدون	محمود عبد الغني	العدد 45
المجال المقدس.. ووظائفه الاجتماعية	عبد الواحد مدفون	العدد 46
الديموقراطية.. في قاعة الانتظار	الدكتور سعيد يقطين	العدد 47
مسالك المعنى دراسات في الأنساق الثقافية	سعيد بنكراد	العدد 48
«المجتمع السياسي» ونسق تداول السلطة بالمغرب	د. عز الدين جسوس	العدد 49
ميطودولوجيا البحث في اللغات والآداب والتنوع الإعلامي	د. عبد النبي ذاكر	العدد 50
الرحالة العرب ودهشة اكتشاف الغرب	د. عبد النبي ذاكر	العدد 51
الواقعي والمتخيل عن نساء الرسول (ص)	مصطفى النحال	العدد 52

❑ أعداد خاصة:

العنوان	المؤلف	العدد
الحرس بين الأمس واليوم	عبد العزيز هنا	عدد خاص
منارات	نادي القصة القصيرة بالمغرب	عدد خاص
قصائد .. قصائد (شاعران، لغتان، عالمان)	كورت درافرت وعادل قرشولي	عدد خاص
امرأة.. وبقايا رجل	حفيظة لحر	عدد خاص
Un demi siècle dans les arcanes de la politique	عبد الهادي بوطالب (فرنسية)	عدد خاص
Les mythes fondateurs de la politique israélienne	روجي جارودي (فرنسية)	عدد خاص
الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية	روجي جارودي (عربية)	عدد خاص
العلاقات الدولية الراهنة	عبد الواحد الناصر	عدد خاص
الإرهاب وعدم المشروعية في العلاقات الدولية	عبد الواحد الناصر	عدد خاص
التطبيقات المغربية لقانون العلاقات الدولية	عبد الواحد الناصر	عدد خاص
المتغيرات الدولية الكبرى	عبد الواحد الناصر	عدد خاص
النظام القانوني الدولي وإشكاليات ما بعد هجمات 11 سبتمبر 2001	عبد الواحد الناصر	عدد خاص

العدد	المؤلف	العنوان
عدد خاص	عبد الواحد الناصر	المشكلات السياسية الدولية
عدد خاص	عبد الواحد الناصر	الحياة القانونية الدولية: مدخل لفهم اتجاهات التطور
عدد خاص	المصطفى المريزق	في الطريق الى ربيع الديموقراطية
عدد خاص	عبد الواحد الناصر	العلاقات الدولية للمغرب
عدد خاص	محمد نور الدين أفايا	Communication de l'adversité Identité, démocratie, création

●

ⵜⴰⴳⵍⴷⵉⵜ ⵏ ⵍⵎⵖⵔⵉⴱ المملكة المغربية
ⵜⴰⵎⴰⵡⴰⵙⵜ ⵏ ⵜⵓⵙⵙⵏⴰ وزارة الثقافة

«نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة»

روايات الزمن 23
2015

الأبله والمنسية وياسمين

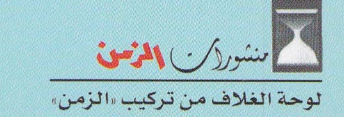
الميلودي شغموم

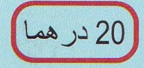
يحمل الروائي الميلودي شغموم دكتوراه الدولة في الفلسفة، وهو أستاذ جامعي مرموق، زاول، لعقودٍ من السنين، تدريسَ الفلسفة والأدب العربي، شعراً ونثراً، في الجامعات المغربية، وكاتبٌ معروف بإبداعاته السردية، قصة ورواية؛ كما أنه مارس النقد قديمه وحديثه، وتعاطى تدبيج الدراسات الفكرية، واضطلع بترجمة عدد من الأعمال الفلسفية.

وعندما يزاول الدكتور شغموم فعل الكتابة، فإنه ينهل من بحار الثقافة المغربية بروافدها الإفريقية والإسلامية والعالمية، ومن ينابيع موهبته الثرة، ومكنوز تجربته التدريسية الطويلة، ومخزون معارفه العميقة الواسعة، وطريف تجربته الإنسانية النبيلة، ومكنون إحاطته بالمدارس النقدية والتقنيات السردية. ولهذا فإن أعماله الأدبية حافلة بالتشويق والإثارة، غنية بالمعرفة والثقافة، غاصة بالقضايا الفكرية التي تزدان بأسلوبٍ سلس، ولغةٍ سليمة صافية هادئة ممتعة.

وتُعدُّ روايته الموسومة بـ " الأبله والمنسية وياسمين" من أهم أعماله الأدبية، إن لم تكن أهمها جميعاً. فهي تراوح بين الجد والهزل، وتمزج المتعة بالفائدة، وتزاوج بين الخيال والواقع، وتُقدِم بجرأة على التجريب والتجديد، وترمي إلى الرقي بلغة القارئ وفكره. إنها لؤلؤة متميزة في خضم الروايات العربية المعاصرة.

الدكتور علي القاسمي





لوحة الغلاف من تركيب «الزمن»